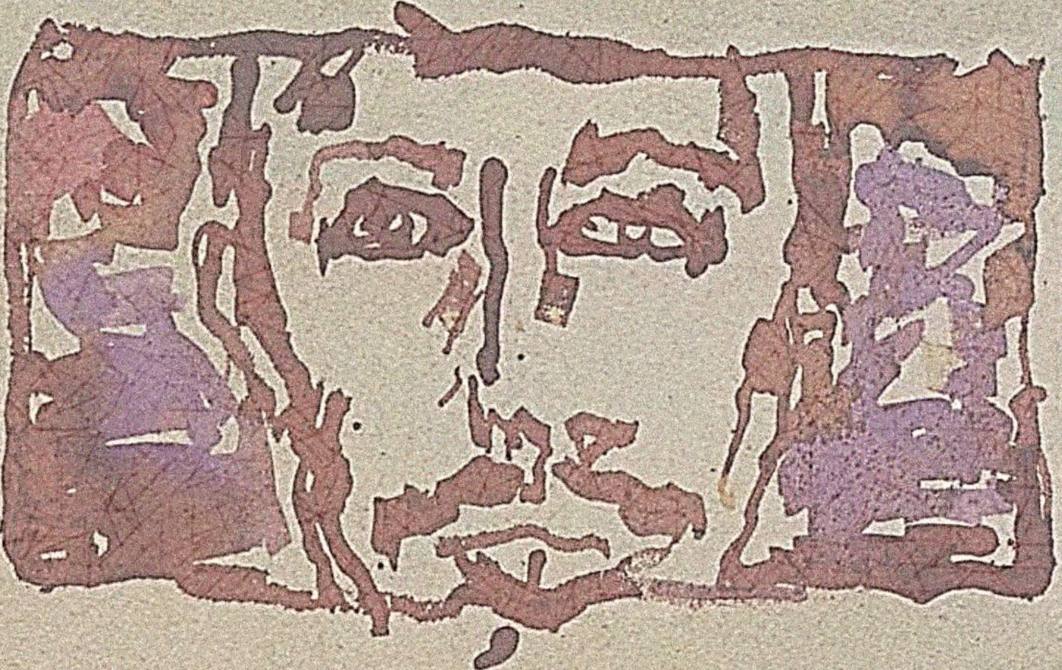
عبد الرحمن منيف



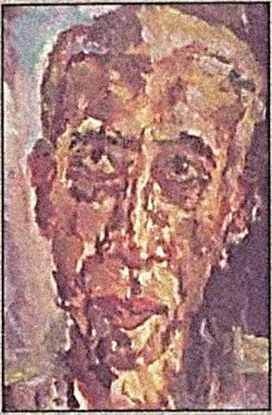
عروة الزمان الباهي

علي مولا

إن الباهي، بالفرادة التي يمثلها، حياة وسلوكاً، كان أقرب ما يكون إلى زوربا اليوناني. وبالتالي كان نموذجاً فذاً لشخصية روائية بالغة الغنى والتعدد، وكان بنفس الوقت، نموذجاً لجيل ولمرحلة تاريخية، بما انطوى عليه ذلك الجيل من أحلام وخيبات كبرى. وهي مرحلة بالغة الأهمية والتأثير، لما حملته من إمكانيات واحتمالات، وما وعدت به من نتائج.

إن أهمية التاريخ، والدور الذي يلعبه في حياة الشعوب، يتحددان بما يقدمه من دروس وعبر، فالتاريخ ذاكرة، وهذه الذاكرة يمكن أن يضاف إليها باستمرار، كما يمكن أن تتبلور وتنصقل بالمعرفة والتجارب بحيث تصبح أكثر قدرة على المحاكمة والاستفادة من تجارب الماضي.

والموت الذي أخذ يعصف بجيل الباهي يطرح ضرورة الإدلاء بالشهادات وتدوين التجارب، أما انتظار الوقت المناسب والمثالي فإنه تعويل على السراب.



عبد الرحمن منيف

التصميم:
مروان قصاب باشي

الإخراج:
آنيا مورينغ

صورة الكاتب:
رسم لمروان قصاب باشي

اشراف فني: حاتم الحاج حسن

عبد الرّحمن مُنيف

عُروة الزّمان الباهي

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

المركز الثقافي العربي
للنشر والتوزيع

عُروة الزّمان الباهي

الطبعة الثانية : 2007

الناشران

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

المركز الرئيسي:
بيروت، الصنائع، بناية عيد بن سالم
ص.ب: 5460/ 11، العنوان البرقي: موكيالي
تلفاكس: 751438/ 752308
E-mail: mkpublishing@terra.net.lb

التوزيع في الأردن:
دار الفارس للنشر والتوزيع:
عمّان، ص.ب: 9157
هاتف: 5605432، فاكس: 5685501
E-mail: mkayyali@nets.com.jo

المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع

المملكة المغربية ـ الدار البيضاء:
(الأحباس) ص.ب: 4006 (سيدنا)
هاتف: 2303339
فاكس: 2305726
E-mail: markaz@wanadoo.net.ma

لبنان ـ بيروت:
الحمراء ـ ص.ب: 5158/ 113
هاتف: 352826(01) فاكس: 343701(01)
www.ccaedition.com
E-mail: cca@ccaedition.com

مقدمة

هذا الكتاب فرضه الموت واملاه الغياب. فلو ان الباهي محمد بقي حياً، أو لم ينته بتلك الطريقة المفاجئة السريعة، لما فكرت لحظة ان اكتب عنه. فقد كان الأكثر اهمية، بالنسبة لي، رصد حياته العارمة، متابعتها، التماسّ بها، وأيضاً إنتظار محطته التالية، خاصة وأنه يعد بالكثير، وكان يهيىء نفسه لرحلته الكبرى الجديدة، رحلة الكتابة الحرة، الكتابة التي يحبها: المذكرات السياسية والرواية.

هذا أولاً، أما الأمر الثاني فهو ان الباهي بمقدار الفرادة التي يمثلها، من حيث الحياة والسلوك، وكان أقرب ما يكون الى زوربا اليوناني، وبالتالي كان نموذجاً فذّاً لشخصية روائية بالغة الغنى والتعدد، فقد كان، بنفس الوقت، ممثلاً لجيل ولمرحلة تاريخية. كان ممثلاً للجيل الذي ولد بين الحربين العالميتين، وما انطوى عليه ذلك الجيل من احلام كبيرة وخيبات اكبر. وكان ممثلاً لمرحلة تاريخية بالغة الأهمية والتأثير، لما حملته من

امكانيات واحتمالات، وما وعدت به من نتائج، لو أنه تم التعامل معها بعقلانية وتخطيط. . . وتواضع أيضاً!

علاوة على السببين السابقين، كنت أفترض، أو ربما أتوهم، أن الحياة بالنسبة له، وبالنسبة لآخرين كثيرين، ما تزال تملك مقداراً من الكرم بحيث تفسح له المجال كي يعطي، إذا لم يكن كل ما لديه، فاغلبه، وبالتالي يمكن ان يقدم مساهمة اضافية على شكل شهادة، نفثة صدر، قراءة للمرحلة من نمط معين، خلاصة للتجارب التي مرّ بها أو عاشها. لو ان هذا تم لكان من شأنه ان يغني حياة الآخرين، ان يجعل الواقع مفهوماً بشكل أفضل، لعل جيلاً لاحقاً يستفيد من خبرة الاجيال التي سبقته، وتالياً، لا يكون مضطراً لان يدفع ثمن تجارب سبق أن دُفع ثمنها.

كان هذا هو الافتراض ـ الوهم، لكن وتيرة الحياة العربية المعاصرة، وطبيعة الاجواء السائدة تُذكِّر، المرة بعد الأخرى، ان افتراضاً مثل هذا غير واقعي، ويصبح، في احيان كثيرة، دريئة يحاول أغلب الذين عملوا في الحقل العام الاختباء وراءها إنتظاراً لوقت افضل، مع الترجيح ان هذا الوقت غير قريب، وربما لا يأتي خلال فترة منظورة، ولذلك غاب الكثيرون، وذهبت معهم ثروة كبرى من المعلومات كان بالامكان انتزاعها من النسيان، وجعلها ذاكرة اضافية للاجيال، تساهم في تجنيبها العديد من الاخطاء.

ان اهمية التاريخ، والدور الذي يلعبه في حياة الشعوب، يتحددان بما يقدمه من دروس وعبر، أي ان التاريخ ذاكرة، وهذه الذاكرة يمكن ان يضاف اليها باستمرار، كما يمكن ان تتبلور

وتنصقل بحيث تصبح اكثر قدرة على المحاكمة، والاستفادة من تجارب الماضي. أما استعادة الماضي ذاته، أو العودة اليه، فأمر مستحيل، لان الحياة كالنهر تندفع دائماً للامام، تتقدم، تتغير، وكل شيء مضى لا يمكن استعادته، كواقع مادي، او تكراره، لأن في كل يوم جديد عدداً من الوقائع الجديدة، وعليه فلا يمكن لمرحلة تاريخيةً ان تشابه أخرى إلا كما تتشابه بصمات الاصابع!

مهمة التاريخ رواية ما حصل بدقة وامانة، ومحاولة فهم هذا الذي حصل باسبابه العميقة، والاشارة الى التماثل والاختلاف في الوقائع التى جرت في ازمنة سابقة، وفي أمكنة مختلفة. كل ذلك لاستخلاص الدروس، والقياس على الاحداث، لا تكرارها، خاصة وان التاريخ يقدم مقداراً هائلاً من الوقائع اذا امكن استيعابها فانها تساعد على تجاوز الاخطاء، وتجنب احتمالات سلبية كامنه في الزوايا والمنعطفات.

ان الموت الذي أخذ يعصف قوياً مستبداً باعداد كبيرة من جيل الباهي، لا بد ان يقدم درساً نموذجياً لما يجب ان يُعمل الآن... وقبل فوات الاوان! فالفسحة تضيق، والارض تميد تحت الارجل، أما انتظار الوقت المثالي، الاكثر امناً، للادلاء بالشهادات وتدوين التجارب فانه تعويل على السراب. كما ان العزوف عن قول الحقيقة كالمساهمة في اخفائها او التواطؤ عليها. ومن هنا تترتب على كثيرين مسؤوليات لا بد ان ينهضوا بها، وإلا اصبحوا من النادمين.

لقد اكدت على الباهي مرات لاحصر لها بضرورة ان يكتب شهادته، فقد عاصر احداثاً هامة، وكان مطلعاً على وقائع لا

يعرفها الا القليلون. كما كنتُ راغباً في ان يحاول امتحان قدرته على كتابة الرواية، وفي الامرين، ورغم الموافقة على ان يفعل، الا ان انتظاره للزمن «الباهي» كان يدفعه الى التأجيل باستمرار. وفي النهاية حمل الكثير من الاسرار والاشواق ومضى.

صحيح ان الباهي قدم العديد من الكتابات الهامة، وهي جديرة بان تجمع وتنشر، لكن الاكثر صحة انه كان يملك غيرها الكثير ليكتبه، ليقوله، كي يبقى للأجيال القادمة، لكنه أبقاه في صدره... ثم مضى.

أما حول الطريقة التي اعتمدتها في كتابة هذا النص، فقد آثرت تجنب اسلوب الرواية ـ رغم اغرائه ـ واستبعدت حشد الوقائع والاستشهادات، واكتفيت برسم الملامح العامة لمسيرة هذا الانسان، من خلال التوقف في عددٍ من محطات حياته.

في المحطات، او من خلالها، لا يتاح للانسان سوى الإطلال بسرعة، ولذلك على القارىء ان يعيد بناء المشهد وملء الفجوات، وهذا يقتضي التأمل والمقارنة والعناية بالاجزاء والتفاصيل، وصولاً لاستحضار الشخصية مرة أخرى.

ان حياة الباهي بمقدار ما تتعلق به شخصياً، فقد كانت مرآة لجيل بأسره. وبقدر ما يشكل غيابه خسارة، فإنه يعكس المرارة التي اجتاحت هذا الجيل، والخيبة التي طحنته. واذا كانت قد تضافرت عناصر وقوى واسباب في الوصول الى هذه النتائج، فان الجيل نفسه، ربما، يتحمل النصيب الاكبر من المسؤولية، لأن أحلامه كانت اكبر من طاقاته، ورغباته اوسع من ارادته، وبالتالي فان الشعور لدى هذا الجيل بالمرارة اعنف وأشد من أجيال

أخرى، وخيبته تبدو تراجيدية، لانها مرثاة لجيل ولحقبة تاريخية كانت تعد بالكثير، ومرثاة للحياة كلها.

في نهاية هذه المقدمة لا بد ان اشير الى ان هذا النص ما كان ليظهر لولا كرم ومساهمة عدد من الاصدقاء الذين تداولت معهم، وقد فجعنا جميعاً بغياب الباهي.

كانت لمساعدة هؤلاء الاصدقاء اهمية كبيرة، اذ وضعوا بين يدي قسماً غير قليل من كتابات الباهي، وقدموا معلومات، وابدوا ملاحظات ساعدت في انجاز هذا العمل. وأخص من هؤلاء الاصدقاء: غسان شرارة وأرشيف مجلة البلاغ، وطلال سلمان وأرشيف جريدة السفير، وفواز طرابلسي واستعادة ذكرياتنا المشتركة مع الباهي في باريس، وزهير خوري وما قدمه من لمحات ولحظات مضيئة وحميد مرعي الذي ابدى ملاحظات قيّمة بعد قراءة النص. أما الفنان مروان قصاب باشي، وبعد ان اطلع على النص، فقد ابدى رغبته في المساهمة بتخليد ذكرى الباهي، فقام برسم لوحة الغلاف.

الى هؤلاء، وإلى آخرين كثيرين، كل الشكر والتقدير، مع التأكيد انني وحدي اتحمل تبعات الخطأ والنقص، ان وجدا.

سلام على الباهي حياً وغائباً، فقد كان كبيراً في حياته، ولا بد ان يشمخ اكثر بعد الغياب.

عبد الرحمن منيف

[1]

في صيف 1953، وبعد انتهاء سنتي الجامعية الاولى في بغداد، عدت إلى عمان. ما كادت ايام قليلة تمر حتى انفجرت واحدة من المظاهرات الكبيرة، احتجاجاً على نفي محمد الخامس، سلطان مراكش، كما كان يطلق على ملك المغرب آنذاك. اصطدمت التظاهرة، التي انطلقت بعد صلاة الجمعة، بالشرطة، مما ادى إلى اعتقال عدد من المتظاهرين وتوقيفهم.

كانت هذه محطة مهمة في حياة الكثيرين، فتحت اعينهم على حقائق جديدة: الملك ليس رمزاً للشرعية فقط، وانما هو رأس الحركة الوطنية أيضاً. ولانه يمثل الرمز والوطنية معاً، وبعد ان اصطدم مع الاحتلال الفرنسي يعاقب بالنفي، فيكون الرد احتجاجاً واسعاً، يبدأ من المغرب ويمتد ليشمل اجزاء عديدة من الوطن العربي، وما مظاهرة عمان الا صدى من الاصداء، او احد التعبيرات عن وحدة الوطن، وعن الاحتجاج.

انه درس مهم في فهم الوطن والتعامل مع قضاياه. اذ بعد أن كانت الاقطار المجاورة هي الاكثر حضوراً وتأثيراً، يكتشف الجميع ان المغرب العربي الكبير حاضر ومؤثر، تماماً كالاقطار المجاورة.

ليس ذلك فقط، يكتشف الجميع ان الاستعمار واحد، من حيث

الهيئة والسلوك. فمثلما كان كلوب باشا ممثلاً للاستعمار البريطاني في الاردن، فان المقيم العام الفرنسي في «مراكش» يتصرف بنفس الطريقة، ويلجأ إلى العنف لاسكات اي صوت مناوىء، ومن جملة ما يلجأ اليه النفي او السجن.

وحين يفتح باب النظارة، ويزج باكثر من عشرين من متظاهري عمان، يتأكد الشبه اكثر من قبل بين كلوب والمقيم العام الفرنسي. أما حين يتردد نشيد «بلاد العرب اوطاني» فيصبح لاسم تطوان، الوارد في هذا النشيد، معنى شديد الوضوح، بالغ الدلالة، إنه لايقتصر على الكلمات التي تقال، وانما يمثل حياة تعاش، ويجسد رابطة عضوية بين مشرق ومغرب يشكلان وطناً واحداً.

هذا الدرس الذي بدأ صيف 1953 سوف يصبح احد الملامح التي تميز سلوك وعلاقات الكثيرين في المشرق والمغرب، اذ بالاضافة الى اشتعال روح المقاومة، ثم امتدادها لجميع اقطار المغرب العربي، وانعكاسها على المشرق أيضاً، وذلك الالق الذي تميزت به تلك المقاومة، خاصة حين انطلقت الثورة الجزائرية، عام 1954، فقد اندفع الكثيرون من المشرق لمساعدة الثورة، ليكونوا الى جانبها، ومدها بكل انواع الدعم والتأييد.

وفي تلك الفترة إنطلقت افواج عديدة من المغرب الى المشرق العربي، لاقامة مراكز امداد واتصال، لتوضيح طبيعة الصراع الدائر، لحشد اقصى الامكانيات من أجل التأييد والدعم، وكان ضمن هؤلاء عدد غير قليل من الطلبة الذين جاءوا للدراسة، وليكونوا همزة الوصل بين حركة المقاومة وبين الشرايين العربية التي يمكن ان تمدها بالنسغ والمساندة.

ولان طبيعة المرحلة، آنذاك، مليئة بالصراع والحركة واحتمالات التغيير، فان المناخ الشعبي في المشرق العربي كله كان شديد التجاوب، بالغ الحماسة، مع حركة المقاومة، وكان قريب الصلة بها،

خاصة برموزها من المناضلين المتفرغين أو الطلبة. كما ان هؤلاء المتفرغين والطلبة، بحكم المناخ، وبتأثير العلاقات، وبالتالي القناعات، اصبحوا جزءاً من الحركة الشعبية المؤارة الحافلة التي كانت تغطي معظم اقطار المشرق العربي.

ان استعادة جو الخمسينات في المشرق والمغرب معاً، تعطي صورة بالغة الاهمية والدلالة لمدى الحيوية التي كانت تجتاح المنطقة باسرها. فسورية كانت خارجة لتوها من الديكتاتورية العسكرية، اذ كان الشارع شديد الحضور، قوي المشاركة، من خلال الاحزاب الوطنية، التي انتقلت من العمل السري إلى العمل العلني. وعن طريق الصحافة الوطنية، التي تزايدت مشاركتها في تعبئة الرأي العام، من أجل تثبيت الديمقراطية ومقاومة الديكتاتورية، وللاسهام في تبني ودعم قضايا التحرر والثورة. أما الجامعة، خلال تلك الفترة، فقد اصبحت مركز استقطاب واشعاع، ولعبت دوراً في حشد القوى لمساندة المواقف الوطنية، ولنشر الوعي، وكان الطلبة من القوى الرئيسية في الاحزاب والعمل الوطني.

وفي مصر اتضحت ملامح الثورة الجديدة، اذ اخذت خطاً أكثر وطنية، أكثر حزماً تجاه قضايا الاستقلال والتحرر، داخلياً وخارجياً، وانتهجت سياسة مناوئة للاستعمار والاحلاف، وضد التبعية الاقتصادية. كما ساندت حركات التحرر الوطني، خاصة في افريقيا، وتحديداً وقفت إلى جانب حركة المقاومة في المغرب العربي، وتبنت، بشكل خاص، الثورة الجزائرية، وامدتها بالسلاح والمساندة، كما وفرت لرموزها الكثير من حرية الحركة والنشاط، واستقبلت اعداداً كبيرة من المناضلين الجرحى، وكذا الطلبة، ووضعت تحت تصرف حركة المقاومة الكثير من الوسائل لمساعدتها من أجل مواصلة المعركة.

كانت مصر، بعد منتصف الخمسينات، احد اهم مراكز التحرر في

العالم، خاصة حين اممت قناة السويس، واثر تعرُضها للعدوان الثلاثي، وبعد ان اتخذت سياسة واضحة في التَصدي للاحلاف العسكرية الغربية والتبعية الاقتصادية.

أما بعد ان تقاربت، ثم تلاحمت، قوى مصر وسورية، فقد تولدت وتتابعت موجة من المقاومة والتحدي والحماس عمت المنطقة، واصبحت القوى الاستعمارية، خاصة من خلال الانظمة التابعة لها، في حالة دفاع عن النفس، فلجأت تلك الأنظمة إلى التآمر، ثم إلى محاولات التصفية والاغتيال.

في تلك الفترة كان العراق مركز الاستقطاب الرجعي الاستعماري، اذ كان يقود سياسة الاحلاف العسكرية، ويعادي حركات التحرر الوطني، متهماً اياها بالشيوعية، وكان يتآمر على الدول المجاورة التي تتبع سياسة تحررية معادية للاستعمار والتبعية.

ورغم ما تتسم به الطبقة الحاكمة العراقية من صفات، الا انها لم تكن تجرؤ على معاداة الحركات الوطنية في المغرب العربي، بل اكثر من ذلك كانت مضطرة، كصيغة للدفاع عن النفس، إلى استقبال اعداد كبيرة، نسبياً، من الطلبة، وبعض ممثلي حركات المقاومة. ولقد انصهر اغلب هؤلاء في تيار الحركة الوطنية واحزابها، خاصة وان تلك الحركة كانت تخوض معارك ضارية ضد الحكم الرجعي والاحلاف العسكرية، مما سيؤدي إلى نسج علاقات فكرية وسياسية وثيقة بين تلك الحركة واغلب الذين وفدوا من المغرب العربي باقطاره الثلاثة: المغرب والجزائر وتونس.

أما حين تلجأ الحكومة العراقية إلى طرد اعداد كبيرة من الطلبة العرب، فسوف يكون بين الذين سيطردون عدد من طلبة المغرب العربي، مما يضطر هؤلاء إلى الالتحاق بجامعات مصر وسورية، وسوف تتوطد علاقات فكرية وسياسية، وحتى الانسانية، بالمشرق. الامر الذي سيجعل القسم الاكبر منهم الجسر الذي يقوم بين المشرق

والمغرب، كما سيجعل فكرة العروبة تتجاوز الشعار لتتحول إلى حقيقة لها تجسيداتها العملية في العمل السياسي، وفي العلاقة مع الجناح الآخر من الوطن.

واذا كان قسم من هؤلاء الطلبة يعود إلى أقطاره خلال عطلات الصيف، وغالباً ما يتعمدون التوقف في باريس اثناء الذهاب أو الاياب، فقد بدأ بعد النصف الثاني من الخمسينات يتردد اسم، من جملة اسماء، له جمال وجدة: الباهي.

ومثلما رحلت افواج من المغرب العربي إلى المشرق، فقد رحلت قبلها، واكثر منها، افواج إلى فرنسا بشكل خاص، وإلى دول اوروبية اخرى، لتكون على صلة بالاعداد الكبيرة من المهاجرين، ولتسهم أيضاً في اقناع الرأي العام الفرنسي كي يقف إلى جانب المطالب المشروعة التي تنادي بها الحركات الوطنية في المغرب، وضد الحكومة التي تمارس العنف والقهر من أجل ابقاء هذه الاقطار تحت سيطرتها.

كان من بين الافواج التي «تسلّلت» إلى باريس: الباهي. فقد وصلها ضمن الفريق المكلف بالاتصال مع المهاجرين ومع الصحافة الفرنسية.

في ذلك الوقت المبكر ولد الباهي للمرة الثالثة، كما اكتسب صفات وملامح اخذت تتضح وتزداد بمرور الايام، وسوف تجعله شخصاً متفرداً ومختلفاً عن الكثيرين وفي مجالات شتى.

[2]

أما الولادة الاولى للباهي فكانت في خيمة من خيام قبيلة ادو علي، وفي منطقة يحدها غرباً المحيط الاطلسي، وجنوباً نهر السينغال، وعند منهل من مناهل المياه، غير بعيد عن النباغية، وكان ذلك عام 1930.

لقد صادف يوم مولده وفاة احد اقربائه المباشرين، محمد فال اباه ابن باب بن احمد بيبه، وكان هذا عالماً جليلاً وعلماً مشهوراً، وحسب العادة الجارية سُمّي الوليد باسم الراحل تيمناً وتفاؤلاً، ولذلك اطلق عليه اسم محمد فال اباه، وسوف يظل محتفظاً بهذا الاسم سنوات طويلة، لكن حين يتقدم إلى مسابقة في جريدة «العلم» ليكون محرراً فيها، وينجح في هذه المسابقة، يقع خطأ في كتابة الاسم، اذ بدل ان يكون محمد فال اباه، يكتب محمد باهي، ويروق الاسم الجديد للمحرر الناجح فيتخذه اسماً له، ويظل حاملاً له حتى النهاية، ولا يعرف الا به!

يعيش الطفل بين والديه حياة البداوة والتنقل. وفي المحضرة، وهي الجامعة الشعبية التي تستقبل التلاميذ منذ وقت مبكر لتعلمهم القراءة والكتابة والحساب، اخذ يتلقى العلم. وتظل المحضرة ترافقهم في الحل والترحال، ويتسع مجال الدراسة فيها ما دام التلميذ يكبر ويكون اكثر استعداداً لاستيعاب علوم جديدة، خاصة وان العلم احد

ابرز خصائص هذه القبائل في تلك المنطقة. فما أن يتخرج فوج وراء آخر من المحضرة، بعد ان يكون الخريجون قد حصلوا على الفقه واللغة والتاريخ والشعر، حتى يصبحوا معلمين للاصغر منهم سناً، او للذين اقل علماً في القبيلة، او يذهبون إلى الاماكن الاخرى ليصبحوا هناك معلمين وقضاة ورجال فقه، وليكونوا بالتالي رجال الفكر والرأي، وأيضاً العمل السياسي.

هذا الطفل الذي ولد في تلك الخيمة، وعاش بين ابويه واقاربه المباشرين، سوف يتلقى العلوم بسرعة، ويذكر واحد من هؤلاء الاقارب، ان محمد فال اباه حفظ القرآن ولمّا يبلغ السابعة بعد[1].

لكن يصادف ان يتوفى الوالدان، الواحد بعد الآخر، وخلال فترة قصيرة، ليصبح الطفل في رعاية خاله. والخال بالاضافة إلى كونه سليل علم وادب، فانه زعيم سياسي. وفي هذه الفترة سوف تتولى عائشة بنت حرمة ولد بابانا تدريسه، وسيعاونها في فترة لاحقة اولاد العمومة، بحيث لن تمر بضع سنوات الا والطفل قد درس كتب الفقه المعتمدة والنحو ودواوين الشعر الجاهلي وفنوناً اخرى في اللغة والتاريخ وامور الدين، اضافة إلى العلوم السائدة.

وفي خيمة مليئة بالعلم والسياسة، وخلال تلك الفترة التي اعقبت الحرب العالمية الثانية، وكانت مليئة بالاحلام والاحتمالات وارادة التغيير، سوف تتفتح المدارك ويزداد الاهتمام بكل ما يجري، خاصة وان الخال، حرمة ولد بابانا، سيحمل راية الدفاع عن الهوية وحق الامة في الحرية والعدالة، وسوف يصطدم بالادارة الفرنسية، ولاتجد تلك الادارة طريقاً سوى الاعتراف، جزئياً، بضرورة استيعاب الافكار والطموحات الجديدة، فتقرر اشراك السكان لاختيار من يمثلهم ليكونوا

(1) د. محمد عبد الرحمن حرمه ولد بابانا «باهي محمد حرمه، نموذج للنبوغ الشنقيطي»، الاتحاد الاشتراكي ـ 10 تموز 1996.

في الجمعية الوطنية الفرنسية، وينتخب حرمة ولد بابانا ممثلاً عن موريتانيا، وينتقل النشاط السياسي إلى دكار، باعتبارها عاصمة افريقيا الغربية الفرنسية، وفيها مقر الحاكم العام الفرنسي، والتى تدار من خلالها شؤون تلك المنطقة.

في الانتخابات التالية، وبعد ان اتضحت الصورة والاحتمالات، سوف تقف الادارة الفرنسية ضد انتخاب ولد بابانا، وسوف تحتدم المعركة بين القوى الشعبية والادارة الاستعمارية، وهذا ما يدعو محمد فال اباه للانتقال إلى دكار، وستقع هناك معركة ويشارك فيها. ورغم خسارة الخال المعركة، ستبدأ مرحلة جديدة في حياة الشاب الذي كبر فجاة، ويبدأ المشاركة في القضايا العامة. ومن أجل ان يكون متكافئاً مع الآخرين سوف يتعلم الفرنسية ويتقنها، بل ويحفظ القاموس أيضاً، وسوف يبدأ بتعليم الكثيرين الذين جاءوا من موريتانيا، سيعلمهم اللغتين العربية والفرنسية، وسيعلمهم الشعر والتاريخ، والسياسة أيضاً!

وعلى ضوء اتساع الخلاف وزيادة التناقض، وبتأثير المناخ الذي شمل المغرب العربي الكبير، وتفجر الانتفاضات والثورات ضد الاستعمار الفرنسي، سيبدأ الكفاح السياسي المنظم من خلال الاحزاب والنقابات، وسيبدأ أيضاً الكفاح المسلح. ولابد ان يكون محمد فال اباه جزءاً من هذا الكفاح، فتقع الصدامات والملاحقات، ويصبح القاء القبض عليه ضرورياً، فيضطر إلى مغادرة دكار عام 1956، خاصة وان خاله بدأ ينسق نضاله مع جيش تحرير المغرب في الجنوب.

ولان محمد فال اباه بدأ بحزب الوفاق، وبعد ملاحقة هذا الحزب وحله، سينضم إلى الحزب الجديد، النهضة، الذي حل مكان الاول، وسيكون من أعضائه النشيطين. وحين يلاحق الحزب الجديد وأعضاؤه، ونتيجة التطورات الكثيرة التي حصلت خلال هذه الفترة، سوف يضطر إلى المغادرة للالتحاق بجيش التحرير.

رحلته من دكار إلى جنوب المغرب مليئة بالمصاعب والمخاطر.

سوف يكون مضطراً لاختيار طرق وعرة، اذ يجتاز نهر السنيغال، ثم يأخذ الطريق المحاذي للمحيط، وفي ميناء الكويرة يقنع قبطاناً إسبانياً كي ينقله على سفينته إلى طرفايه، مقابل العمل على ظهر السفينة، ومن هناك سوف يذهب إلى مركز تجمع جيش التحرير في جنوب المغرب، إلى كلميم، ومن ذاك المكان ستبدأ حياة جديدة، وكانت هذه بمثابة الولادة الثانية له.

وهكذا تعرض الباهي، ومنذ وقت مبكر إلى الامتحان الاساسي والقاسي معاً، تعرض لهذا الامتحان كفرد وكأسرة. فخاله الذي يعتبر احد وجوه موريتانيا، وزعيماً من زعمائها، وضع في مواجهة خيار حاسم: اما الامتثال لما يريده الفرنسيون، او عزل هذه المنطقة وفصلها عن المغرب. وحين رفض اياً من هذين الخيارين، اضطر إلى المغادرة نحو جنوب المغرب ليبدأ من هناك الكفاح.

وكان خيار الباهي أيضاً الالتحاق بجيش التحرير.

انها احدى التجارب الكبيرة التي خلقت منه مناضلاً وسياسياً، ثم صحفيّاً من نمط خاص، ليصبح في النهاية انساناً مميزاً اقرب إلى البوصلة التي يوجهها الضمير.

وان يدخل الانسان إلى معترك السياسة في وقت مبكر ميزة وازمة في آن واحد. اذ بمقدار ما «تصقل» السياسة الذين تستقبلهم، بحفّ الزوايا، وبعض الاحيان بتربيع الدوائر، بما تولده لديهم من المرونة وضرورة التعامل مع الواقع والممكن، فانها تفتح امامهم بابين كبيرين: باب الامتثال لكل ما يُطلب منهم، تمهيداً للصعود، وباب اليقظة والحذر.. وربما الحلم. ولابد ان يؤدي احد هذين البابين، في وقت ما، بشكل ما، إلى الصدام.

يمكن ان يوازن هذه المعادلة، يعدلها قليلاً او كثيراً، المناخ، اضافة إلى الثوابت التي ترعرع وتربى عليها الانسان، وأيضاً التقاليد المسيطرة. كما يجب الا ننسى الاحلام، وربما «الجنون»، وما يطمح

ان يحققه او يكونه الانسان في هذه الحياة، وعلى هذه الارض تحديداً.

كان الباهي اقرب إلى الفنان في التعامل مع العمل السياسي.

ان السياسة بقدر ما تُنضج المنخرطين في اتونها، وتفسح لهم المجال لإبراز مواهبهم وامكانياتهم، فانها تخلق منهم، في نفس الوقت، كائنات لها طريقة في التفكير والتصرف، وتالياً نظرة للحياة والبشر والعلاقات.

فاذا اقترن العمل السياسي بالكفاح المسلح، بالعنف، وكان الخطر «رفيقاً» قريباً، وبعض الاحيان دائماً، فان مسألة الدفاع عن الوجود، اولاً، ثم مسألة تحقيق الاهداف بالقوة، تصبحان مسألتين بالغتي الاهمية، لان الجهة المقابلة، الخصم، لا تريد فقط منع تحقيق تلك الاهداف، بل وحذف الاداة التي يتم الوصول عن طريقها إلى تحقيق تلك الاهداف. وهكذا تبدأ معركة لها طبيعة قاسية، شرسة، يصعب خلالها على اي من الطرفين تقديم التنازلات، لان التنازل في هذه المرحلة يقود إلى تنازل آخر، ولا بد ان يؤدي في النتيجة إلى النهاية.

هذه قاعدة تكاد تكون عامة. أما حين نأخذ، حالات محددة، مشخصة، مثلما حصل في بلاد شنقيط، او موريتانيا، حسب التسمية اللاحقة، خلال مرحلة بالغة الدقة والحرج، فقد لجأت القوى الاستعمارية إلى خلق مجموعة من العوامل والعناصر التي يمكن ان تستعين بها من أجل الوصول إلى تحقيق اهداف عجزت عن تحقيقها في الظروف العادية والسلمية، فان هذه القوى تصبح اكثر الحاحاً وشراسة اذا بدأت المقاومة المسلحة.

«اخلق الصراع وغذِ المنافسة ثم اضرب المتنافسين ببعضهم تصل إلى تحقيق ما تريده». كان هذا شعار الفرنسيين حين بدأت المقاومة في المغرب، اذ بالاضافة إلى الوقوف في وجه هذه المقاومة، فقد غذّت التنافس والنعرات بين الافراد والمناطق، وقدّمت الوعود، ولجأت إلى التلويح بالعزل والفصل، تمهيداً للتعامل مع كل منطقة بالاسلوب الذي

قد يكون اكثر جدوى لإنهاء المقاومة.

لقد واجه الباهي هذه التحديات واستطاع تجاوزها.

وان متابعة المحطات، والتوقف في بعضها احياناً، من أجل معرفة مسيرته، لا تخلو من اغراء، خاصة وان الرحلة الجديدة هي التي تشكل الوجه الاكثر غنى واهمية، ليس بالنسبة له فقط، وانما بالنسبة للدور الذي قام به، والعلاقات التي نشأت له، وبالتالي هي الملامح الابرز في حياته وتأثيره، انساناً وصحفياً وصاحب همّ كبير.

[3]

عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية، خاصة خلال عقد الخمسينات، موّار صاخب، مليء بالدوي وبالاحتمالات. فالدول الاستعمارية، وبتأثير انتصارها على النازي، تريد ان تُبقي سيطرتها الفعلية على البلدان المستعمرة، فتحاول ان تصوغ علاقاتها الجديدة ضمن المنطق السابق، لكن باخراجٍ جديد. وشعوب البلدان المستعمرة، التي عانت وانتظرت طويلاً، لم تعد قادرة على الاحتمال او الانتظار. كما اكتشفت، اكثر من قبل، طبيعة الاستعمار ومدى القهر والاستغلال، نتيجة هذه العلاقة غير المتكافئة، لذلك هبت تطالب بالحرية، ولا ترضى باقل من الاستقلال، فوقعت الثورات في اماكن عديدة.. ولجأت القوى الاستعمارية، من جديد، إلى العنف لقمع الثورات، وارغام الشعوب على الخضوع، لكن العصر تغير كثيراً، مما حفز الشعوب على المقاومة والتضحية، الامر الذي جعل الأمور اكثر وضوحاً، ولا تحتمل التمويه.

هزيمة فرنسا في فيتنام كانت درساً كبيراً لجميع المستعمرات الفرنسية، اذ اندلعت الانتفاضات والثورات مطالبة بحق تقرير المصير، اعتماداً على المواثيق التي وضعها المنتصرون انفسهم، وبالتالي حقها بالحرية والاستقلال.

وفاضت ذاكرة الشعوب بمآسي الماضي، بدءاً من ضربة المروحة التي كانت ذريعة لاحتلال الجزائر عام 1832، مروراً باحداث ايار 1945، حين حصدت نيران القوات الاستعمارية الآلاف من العُزّل الذين كانوا يطالبون بحق الجزائر بالاستقلال، استناداً لوعود فرنسا ذاتها اثناء الحرب، وانتهاء بعَزْل محمد الخامس، وتسمية دمية مكانه، ابن عرفة، وزيادة إحكام قبضة المستوطنين الفرنسيين، وزيادة استغلالهم. وهكذا لم يجد المغرب العربي، باقطاره الثلاثة، مفراً من الثورة.

وتغير العالم بعد الحرب أيضاً، من ناحية الدور المتزايد الذي اخذ يلعبه الرأي العام في بلدان الدول المستعمرة، وفي بلدان اخرى كثيرة، وبالتالي التأثير الذي يمكن ان يمارسه في مواجهة الحكومات، وعلى السياسات التي تتبعها، سواء في الداخل او الخارج.

هذا الرأي العام يتمثل بالاحزاب والنقابات، كما يتمثل بالصحافة ودور النشر الديمقراطية، ويتجسد بوضوح أيضاً بعدد بارز من المثقفين الافراد، خاصة اولئك الذين خاضوا غمار المقاومة الوطنية اثناء الحرب العالمية الثانية في مواجهة النازي.

من خلال الاهمية المتزايدة للرأي العام بادرت الحركات الوطنية في المستعمرات إلى إقامة الصلة، وتوضيح المواقف، والاستعانة بالاحزاب والنقابات والرموز الثقافية، من أجل كسب التأييد والدعم، وهذا ما دفع تلك الحركات لان تبعث بعناصر كفؤة، وتتمتع بالمرونة والخبرة كي تقيم مثل هذه الصلات.

يضاف إلى ما تقدم ان العالم الذي قام بعد الحرب مختلف من حيث التركيب والتوجهات وموازين القوى. فالاتحاد السوفياتي الذي كان دولة محاصرة منذ قيامه، اصبح معسكراً يضم دولاً عديدة بعد الحرب. أما حين امتلك السلاح الذري، فقد تحول إلى قوة موازية للمعسكر الآخر، وبالتالي اصبح مؤثراً في قضايا العالم، وذا شأن في

تحديد مسارات الاحداث واحتمالاتها، مما سيدفع قوى التحرر الوطني إلى الاعتماد المتزايد على دعمه وتأييده.

أما بعد ان انكسر احتكار السلاح، وبعد ان التقت اغلب الدول المحايدة في باندونغ، فقد تعززت طاقات الشعوب وقوى التحرر الوطني، واصبحت اقدر على خوض معارك يمكن ان تؤدي إلى نتائج ايجابية، عكس مراحل سابقة، حيث كان للسلاح مصدر واحد، وكانت القوى الاستعمارية تعتمد على القوة، وعلى القوة وحدها، لاخضاع الشعوب، والبطش بالمناوئين، دون ان تخشى ردود فعل دولية.

في ظل وضع دولي هذه بعض سماته، من الطبيعي ان تقع الانتفاضات، وتنشب الثورات للمطالبة بالتحرر والاستقلال، خاصة وان الحركات الوطنية اكتسبت الكثير من تجارب الماضي، وخبرت القوى الاستعمارية وكيف تتناسى وعودها ما ان تتجاوز المصاعب والتحديات التي تواجهها، كما حصل اثناء الحربين العالميتين، الاولى والثانية. اذ بعد ان قدمت الوعود لكثير من الشعوب وحركات التحرر المطالبة بالاستقلال، وبالغت في اظهار حسن النية، فقط كي تقف هذه الشعوب إلى جانبها، او ان تتوقف عن مقاومتها، ما لبثت ان ضربت بتلك الوعود عرض الحائط، واستمرت في سياسة القمع والاستغلال والالحاق، دون شعور بالذنب او خشية من النتائج.

الآن، وفي مواجهة ادارة فرنسية بالغة القسوة والسوء والتخلف، في فرنسا ذاتها، وفي المستعمرات على وجه الخصوص، كان العنف المسلح من قبل الجماهير وحركاتها الوطنية الرد المناسب والوحيد في مواجهة مثل هذه الادارة، ومثل هذه السياسة. وهكذا اشتعل المغرب العربي بأسره، فبدأت الانتفاضات والاحتجاجات والمقاومة، وصولاً إلى الثورة، كما حصل في الجزائر.

وباعتبار ان معركة الاستقلال ذات شقين، الاول على ارض

المعركة، والثاني في قلب باريس، من اجل حشد اكبر القوى، المغربية والفرنسية، لدعم النضال من أجل الاستقلال، فقد اختارت الحركة الوطنية مجموعة من المناضلين الذين امتحنوا جيداً في جبال الاطلس، وفي حروب شوارع المدن، كي يكونوا ممثلين لهذه الحركة في مواقع جديدة يستطيعون من خلالها الوصول إلى عقل الرأي العام في الجهة الاخرى، وإلى ضميره، واختير الباهي ليكون واحداً من هؤلاء، وفي باريس بالذات.

وهكذا بدأت رحلة جديدة[1].

---

(1) بعد مرور سنوات على استقلال الجزائر، اصدر أحد مدراء المخابرات الفرنسية كتاباً، لخصه الباهي في احدى رسائله الصحفية إلى جريدة السفير. كتب الباهي: «يتساءل هذا المدير: الم يكن الدافع الرئيسي لديغول في مغادرة الجزائر فكرة: انه إذا تمكنت الجزائر بجغرافيتها الراكضة ان ترسل إلى البرلمان مئة او مئتين من النواب، افلا نكون نحن الذين نتعرض للغزو؟ ويضيف هذا المدير ساخراً: كان ديغول يتساءل: الا يجب ان نفكر ليس في جزائر فرنسية وانما بفرنسا جزائرية؟». رسالة الباهي في السفير، 6 تشرين الاول 1986.

[4]

جاء هذا البدوي من اقصى حدود الوطن، من ضفاف نهر السنيغال، هذا شيء مؤكد، ويجمع عليه الرواة. أما الشيء غير المؤكد، والذي يختلف فيه الرواة فهو كيف حفظ هذا المقدار الهائل من الشعر، خاصة الجاهلي، وأيضاً كيف حفظ القرآن نصاً ومعاني؟

عدم دقة الروايات، والاختلاف بين الرواة، نتيجة سؤال: هل يمكن لفتى صغير ان يحفظ كل هذا الشعر، وان يحفظ المعاني دون خطأ ؟ والامكنة الجديدة التي اضطر الانتقال اليها، في دكار ثم جنوب المغرب، وصولاً إلى الرباط، اتتصف بنفس التقاليد، وبنفس المناخ كي يواصل ما بدأه في المحضرة ؟

حين يسأل، حين يسمع الروايات التي تُروى، والتي تتداخل فيها الحقائق الكبيرة بالاكاذيب الصغيرة، بالامازيح، فانه لا يكلف نفسه عناء الرد الجدي، لتأكيد رواية ولنفي اخرى، انه يرد على كل ما يقال بضحكات صاخبة اقرب إلى العربدة، لأنه يعتبر المسألة لا تستحق التدقيق او التصحيح، تواضعاً من ناحية، ولانه يريد ابقاء الكثير من اسرار المكان والطفولة وغرابة حياة المرحلة الاولى، وقسوة الطبيعة، وبدائية العلاقات، وغيرها من مشاهد وتفاصيل، مفاجآته الكبيرة حين يكتب الرواية !

في احاديثنا المسترسلة، والتي تشبه، في احيان كثيرة امطار الربيع، لغزارتها وتدفقها، ولانها تأتي فجأة، وتنتهي كما بدأت، كانت تومض اضاءات عن تلك الطفولة واول الصبا. لكن بمقدار ما كانت تروي طفولة محددة، كانت تُروى بصيغة الغائب، وكأنه يتحدث عن انسان عرفه منذ ازمنة موغلة في البعد، ولا يريد ان يبوح بكل ما يعرفه عنه.

ولان الاحاديث هكذا تبدأ، ولما فيها من دهشة واكتشاف وغرابة، ثم نتيجة التهديد الذي لا ينتهي بانه يحشد نفسه، وكل ما تقوى عليه الذاكرة، كي يكتب ذلك في وقت لاحق، كان يشفع للذاكرة الأخرى ان تنسى، ان تتوقف عن تسجيل تلك اللحظات البراقة المليئة بهذا القدر الكبير من التفاصيل.

ليس ذلك فقط، بل ان الانسان في مواجهة هذا الفيض الذي تدفق فجأة، يريد ان يعطي نفسه مهلة لتملي المشاهد والتفاصيل، يعجز عن تلقي كل هذه المعلومات والانطباعات دفعة واحدة، ولانه يريد ان يُبقي لنفسه لذة الاكتشاف مرة اخرى حين يقرأ ذلك مكتوباً.

يمكن لواحد آخر ان يتتبع مسار هذه الحياة منذ بداياتها الاولى، وسوف يكون ذلك نافعاً ومهماً، لكن ما يبدو لي انني قادر عليه التوقف في بعض المحطات منذ ان بدأ اسمه يرن، ثم حين التقينا.

ففي الفترة الاخيرة من الخمسينات، والمنطقة العربية تعجّ بانتقال البشر، وتضجّ بالاحداث والتغيرات الكبيرة العاصفة، بعد تأميم القناة والعدوان الثلاثي، ثم الحشود التركية على الحدود السورية، واحتدام معارك الاحلاف العسكرية، ثم ملء الفراغ، وتحقيق اول وحدة بين قطرين عربيين اساسيين في العصر الحديث، مصر وسورية، وثورة تموز في بغداد.

وعلى الجانب الآخر من الوطن، الشمال الافريقي باقطاره الثلاثة، وقد لجأ الفرنسيون إلى تجزئة المعركَة، باعادة محمد الخامس من المنفى، والاعتراف باستقلال تونس، كي يتفرغوا إلى حصار الثورة

الجزائرية، تمهيداً للقضاء عليها.

في تلك الفترة بالذات، وعن طريق بعض الاخوة الجزائريين في القاهرة، وتحديداً عن طريق منور مروش وعبد القادر القاسي، وفي اطار الاذاعة التي كانت موجهة من القاهرة إلى الجزائر، رنَّ، ربما لاول مرة، اسم الباهي، الذي بعث برسالة من باريس يصف تأييد عدد متزايد من المثقفين الفرنسيين للثورة الجزائرية، والجدل الذي يدور في الصحافة الفرنسية حول ذلك.

هكذا ورد الاسم: الباهي، ولاشيء قبله او بعده. ومنذ تلك اللحظة تردد صدى ذلك الاسم، اولاً لانه لم يكن اسماً مألوفاً في المشرق، وبالتالي يستوقف من يسمعه لكي يتملاه، وليستحضر، ثانياً، مؤنث هذا الاسم، باهية او بهية، الذي يعني الكثير في الفولكلور المصري، وفي الغناء. يضاف إلى ذلك طبيعة المهمة التي يقوم بها في باريس، مما يعني ان فرنسا ليست شيئاً واحداً، فهناك من يعترض على الحرب ويدينها. ثم هناك دور مميز للثقافة وللمثقفين، الامر الذي لم يكن حاضراً، او بنفس الاهمية، في المنطقة العربية، حيث كان اغلب المثقفين يكتسب دوره وأهميته بمدى اقترابه من السلطة، أما إذا كان للمثقف دور متميِّز ومختلف، ومعارض أيضاً، فإن أقل ردود السلطة شأناً على اختلافها معه، ان تطوقه بالصمت، أن تضعه في زاوية مظلمة، بحيث لا يسمعه ولا يراه أحد. وحين يلجأ هذا المثقف المختلف او المعارض إلى التحدي فالسجون واسعة، او عليه ان يجد وسيلة للهرب !

في تلك الفترة بالذات كان لاجئو الرأي والكلمة العرب في القاهرة بالمئات، ومن شتى الاقطار. كان منهم الشعراء والكتاب والمختلفون سياسياً مع حكام اقطارهم.

لقد وصل هؤلاء اللاجئون إلى القاهرة على شكل موجات متتابعة، منهم من وصل في فترة مبكرة، ومنهم من جاء متأخراً. فالخطابي

والكيلاني والقصيبي الموجة الاولى، ثم ابو نوار وطوبال موجة ثانية، وتبعهم البياتي والفيتوري والراوي وفرمان والكمالي، ليتنفسوا هواءً نقياً، وليقولوا شعراً أيضاً، وليصدر بعضهم اول اعماله في القاهرة مثل غائب طعمة فرمان.

واذا كانت دمشق المحطة الاولى لكثيرين من لاجئي المشرق، خاصة من العراق والاردن، باعتبار أن هذه المدينة صغيرة، نسبياً، فقد كان اللاجئون اكثر ظهوراً، وربما ضجيجاً، خاصة في مقاهٍ وسط المدينة. لكن بعد تأميم قناة السويس، واثناء العدوان الثلاثي ثم بعده، انفتح الطريق عريضاً بين دمشق والقاهرة، واصبح انتقال اللاجئين بين المدينتين ميسوراً، إنْ لم يكن من أجل الاقامة، فمن اجل الزيارة، والتي كانت تمتد لفترات طويلة، كما حصل، مثلاً، اثناء العدوان الثلاثي.

فمحمد فؤاد جلال، رئيس مؤتمر الخريجين العرب، الذي دعا إلى مؤتمر في القاهرة لمساندة مصر بعد تأميم القناة، وجد نفسه ومدعويه مضطرين للبقاء في القاهرة اسابيع عديدة متوالية بعد ان وقع العدوان الثلاثي. وهكذا بقي الجادرجي والحوراني ويوسف الرويسي، والمدعوون الآخرون، وكان هذا البقاء ليس نتيجة صعوبة السفر قدر ما كان تعبيراً عن التضامن والمساندة.

بكلمات اخرى، كانت القاهرة، تلك الفترة، عاصمة العرب وافريقيا معاً، وكان سقفها عالياً بحيث تتسع للذين كان لديهم الكثير ليقولوه، ولم تحتمل بلدانهم اقوالهم او ما يفكرون به، فجاءوا إلى القاهرة ليقولوا كل ما يفكرون به.

واذا كان معظم النشاط السياسي بالنسبة لأبناء المشرق يجري علناً، فان نشاط المغاربة، وفي معظم المجالات، كان يجري في السر، اذ كان له طابع شديد الخطورة والحساسية، فالثورة الجزائرية التي اتسعت، ودخلت مرحلة حاسمة، كانت بحاجة إلى دعم واتصالات

من طبيعة تتجاوز التعبئة والتحريض، فهي تحتاج إلى السلاح، وإلى وسائل لنقل هذا السلاح، كما تحتاج لإقامة الجسور بين الداخل والخارج، اضافة إلى دعم ومساعدات من نمط معين.

في وقت مبكر من عام 1956 كانت الثورة الجزائرية بحاجة إلى مساعدات طبية. كانت تحتاج إلى الاطباء والادوية والمعدات، وفي تلك الفترة تجند الكثيرون، ومر بالقاهرة عدد من الاطباء المتطوعين، فمن سورية مثلاً، مر بالقاهرة، وبسرعة، الاتاسي والزعين وماخوس، ومر اطباء عراقيون، ومن لبنان أيضاً، ولم يتوقف هؤلاء الا فترة قصيرة، فظروف الثورة الجزائرية كانت تقتضي سرعة التحاقهم بمستشفيات الميدان.

بايجاز... كانت المنطقة، من اقصاها إلى اقصاها، تموج. حتى اليمن بجزأيه، اليمن الذي كان يحكمه الامام، والجزء الآخر الخاضع للاحتلال البريطاني، «أوفد» عدداً غير قليل من سياسيِّيه إلى القاهرة، كي ينجوا بانفسهم اولاً، وكي يكونوا صيغة ارتباط بين الداخل والخارج، وأيضاً ليصبحوا قريبين من اكبر تجمع طلابي خارج اليمن. كان الزبيري والنعمان والحبشي والجفري وغيرهم.

حتى تلك الجزيرة الصغيرة، البحرين، التي اندلعت فيها المقاومة ضد الوجود الانكليزي، وبعد ان نفي قادة المقاومة إلى سانت هيلانة عام 1956، وحين افرج عن هؤلاء، لم يجدوا سوى القاهرة ودمشق مكاناً للاقامة ولمواصلة النضال، وهكذا جاء إلى هاتين المدينتين: عبد العزيز الشملان وعبد الرحمن الباكر وعبد علي العليوات.

ولان وضع المنطقة هكذا، فان الكثير من المفاهيم والنظرة والمواقف قد تغير. فمصر التي كانت منكمشة، او لها نظرة لعلاقتها بالمنطقة، وكانت تراوح بين الفرعونية والمواقف المتعالية، لم تلبث ان تغيرت، خاصة بعد ان وُضِعَ دستور جديد نص فيه على ان مصر دولة عربية. أما الصحافة التي كانت قليلة الاحتفال بالقضايا العربية، إبَّان

الحكم الملكي، فقد تغيرت كثيراً، وظهرت صحف جديدة، العروبة ابرز ملامحها.

«روز اليوسف» التي اكتسبت ملامح معينة خلال عمرها الطويل، وجدت ان المرحلة الجديدة تقتضي وجود مجلة اخرى إلى جانبها. واحمد بهاء الدين الذي كان ابرز محرري المجلة الاولى، وله ملامح مختلفة مميزة، اصبح رئيساً لتحرير المجلة الجديدة: «صباح الخير»، واصبح الهمُّ العربي همَّ هذه المجلة، خاصة وان عدداً من كتابها من اقطار متعددة، ولم تقتصر على المصريين.

واليسار الذي كان مغيباً، ويواجه صعوبات في التعبير عن مواقفه، اتيحت له الفرصة في المرحلة الجديدة من خلال جريدة «المساء» ومجلة «الغدّ»، ودور النشر الجديدة، وبدأت تلعب دوراً مميزاً على مستوى مصر والمنطقة العربية باسرها. اكثر من ذلك اخذت بعض الكتب، في هذه المرحلة، تحمل اسماء مؤلفين من اقطار عربية متعددة.

حتى الشعر الحديث في مصر وجد ان الرئة الجديدة التي يستطيع من خلالها ان يتنفس، لن يكون هذا الشعر جديداً الا بالمدى العربي. فاحمد عبد المعطي حجازي انطلق من نقابة الصحفيين في مصر، حين وقف في اكتوبر 1956 ليربط نضال مصر ومقاومتها للعدوان من خلال التحامها مع اوراس، ومساندتها لنضال الجزائر، لأن المعركة المفتوحة لا تقتصر على بقعة بمفردها، وانما امتدت واتسعت لتشمل المنطقة كلها، ولذلك فان قصيدته «اوراس»، أشرت وأكدت ولادة شاعر كبير، سيكون له شأن في الشعر على امتداد مساحة الوطن العربي.

في هذا المناخ الحافل بالحركة والتغيير، المليء بالاحتمالات، والمليء بالتحديات والامل، بدأ يتردد اسم الباهي، وكانت هذه اول اطلالة على المشرق العربي، ومن خلال ثورة الجزائر بالتحديد.

[5]

الإطلال على الوطن من بعيد يعطي الوطن معنى اضافياً، اذ يُرى في عيون الآخرين، ويستطاع تحديد موقعه وأهميته، رغم المسافة، بشكل ادق، وربما بشكلٍ اكمل، تماماً كمن ينظر إلى الغابة، اذ لا يستطيع ان يراها كاملة أو بشكل جيد حين يتجول بين اشجارها، فالظلال التي تخلفها الاشجار الصغيرة والكبيرة تغرقه وتجعله لا يرى الا ما حوله، أما اذا ابتعد إلى مسافة كافية فانه يرى الغابة كلها، ويرى حجمها قياساً إلى ما يحيط بها.

اثناء اقامتي في يوغسلافيا، اواخر الخمسينات وبداية الستينات، ومن خلال اصدقاء المغرب العربي، من الطلبة ومن الجرحى الذين كانوا يتلقون العلاج في يوغسلافيا نتيجة اصاباتهم في معارك الجزائر، بدأت ترتسم صورة اكثر وضوحاً وتحديداً للباهي. فاغلب الذين تعرفنا عليهم هناك يعرفون على الاقل اسمه، وبعضهم التقاه في المغرب او في باريس، وَوُجِدَ من التقاه في الجبل. هذا عدا عن رسائله الصحفية التي بدأت تجد لها مكاناً ليس فقط على موجات الاثير، من خلال «صوت العرب» او الاذاعات الاخرى الموجهة إلى الداخل الجزائري، بل وفي بعض الصحف المغربية.

اذن الباهي شخص واقعي وهذا بالفعل اسمه، وليس مثل كثيرين

خلال تلك الفترة حيث كانوا مضطرين لاستعمال اسماء حركية، وكانوا ينتقلون من مكان إلى آخر بهويات تتلاءم وتلك الامكنة!

لقد شكّل الاكتشاف الاكيد لوجود هذا الانسان بداية توق لمعرفته، خاصة وان بعض الذين التقينا بهم، واصبحوا اصدقاء، يعرفونه. فالبارودي يعشق كتاباته كما يعشق ميشيل طراد وازجاله، كما انه على صلة بمغاربة فرنسا، وعلى التحديد بالباهي.

ولان يوغسلافيا، خلال تلك الفترة، عدم الإنحياز، والعلاقة الحميمة التي تربط القادة الثلاثة: تيتو وناصر ونهرو، والذين كانوا فاعلين ومؤثرين في السياسة الدولية، ولان عيون العالم متجهة إلى هذه المنطقة التي تعج بالاحداث والاحتمالات، اضافة إلى المنعطف الجديد الذي حصل في فرنسا، بوصول ديغول إلى السلطة، فان رؤية المنطقة من ذاك الموقع كانت مثل رؤية الغابة من جبل مقابل.

وفي تلك الفترة كان أحد اقطاب المنظمة الآسيوية الافريقية، المهدي بن بركة، يجوب العالم، وكانت بلغراد احدى المحطات التي يتوقف فيها بين فترة واخرى، وكان يطيل وقفاته بعض الاحيان، ولان حديثاً يقود إلى آخر، واسماً يستدعي اسماً غيره، فقد اصبح اسم الباهي اكثر حضوراً ووضوحاً من قبلُ، لان ابن بركة اتى على ذكره مرات.

وفي هذه الفترة أيضاً بدأت تصل جريدة «التحرير» المغربية، وبدأ الباهي يطل من خلالها كاحد ابرز كتابها، واصبح الشوق اكثر من اية فترة سابقة لان نلتقي!

[6]

لا يمكن لمكان آخر في المنطقة العربية كلها ان يكون مثل بيروت او بديلاً عنها، فهذه المدينة ضرورية لنفسها، لاهلها، وللآخرين أيضاً، خاصة للعرب، هكذا كانت وربما هكذا ستبقى.

ففي الخمسينات، ثم في الستينات، وربما حتى بداية الحرب الاهلية، كانت بيروت تستقبل كلَّ الناس، كل الاتجاهات، كل ما هو جديد، وأيضاً كل ما هو جريء وربما غير مألوف في المدن العربية الاخرى.

واذا كانت مقاهي الحمراء ورأس بيروت كافية خلال النهار لاحتمال كل هذا الدوي الذي يصدر عن السياسيين والصحفيين، واذا كانت المطاعم المنتشرة في حواري هاتين المنطقتين قادرة على استيعاب اغلب هؤلاء الحالمين بغدٍ افضل، والذين تختلط افكارهم باحلامهم في مزيج نادر، وربما جميل ومقنع، خاصة اذا اكتحل بالعرق، فان ليالي بيروت تتركز بالنسبة لهؤلاء في الروشة، اذ بجانب البحر المشبع بالرطوبة والملوحة تبدأ طاحونة الكلام، والكلام اذا بدأ قد يمتد إلى آخر الليل، إلى آخر حلم جميل بغدٍ افضل!

كان الملاحقون من الانظمة الديكتاتورية والرجعية، خلال فترات متعددة، لايجدون غير بيروت مكاناً يمكن ان يؤويهم. كانوا يندفعون

اليها من الامكنة القريبة ومن الامكنة البعيدة. كان بعضهم يمشي جزءاً من الطريق، ويركب دابة في الجزء الآخر. كان بعضهم يأتي عن طريق البحر، وبعضهم يأتي عبر المطارات النائية. فاذا تجاوز الواحد الحدود تنفس ملء رئتيه سعادة، وايضاً تعويضاً عن الانفاس التي احتبست في صدره خلال الشهور السابقة.. لقد وصل! وفي بيروت سيجد الاصدقاء، وايضاً سيقرأ الجرائد، وسوف يعرف عن احوال بلده اكثر مما كان يعرف عنه وهو فيه!

في مطعم «فيصل»، الانكل سام، الهورس شو، ستراند، وفي امكنة اخرى كثيرة مماثلة، كانت تشاد الاهرامات كل يوم، اذا لم يكن كل ساعة، وكانت هذه الاهرامات تتقوض او ترتفع تبعاً لعوامل كثيرة، وإلى ان يبين الخيط الابيض من الخيط الاسود!

في مطعم فيصل: الرصانة، وهي احدى الصفات المستمدة من الجهة المقابلة، الجامعة الأميركية، والمستمدة أيضاً من الإرث العائلي، البيروتي اولاً، ثم الذي يفد من امكنة عديدة، لكن مماثلة، من العراق والاردن وبعض اطراف الجزيرة العربية. وتعبّر هذه الرصانة عن نفسها بالحرص المبالغ فيه على التقاليد والمراتب، وايضاً الصوت الخفيض، والضحك دون قهقهة، واستعمال الارقام والشواهد اثناء المناقشة، وتحليل الامور بهدوء ودقة تمهيداً للوصول إلى نتائج منطقية!

كان يجرح هذه الرصانة، بعض الاحيان، صوت كمال ناصر، حين يدخل، كزوبعة، مردداً بعض الابيات التي استقام وزنها، ومغمغماً باخرى، في محاولة لان يدوزنها مع التي سبقتها، وخالقاً جواً من الهرج وهو يتبادل الاخبار والتعليقات مع «الاقطاب» الذين سبقوه واحتلوا مواقع حصينة في «فيصل» المقهى، والذي سيتحول بدءاً من الواحدة إلى مطعم للصفوة وللطبق اليومي!

وفي الانكل سام، والذي تشبه مقاعده المحاذية للجدران مقاعد عربة قطار، يحتل الماغوط واحدة من الطاولات الشرقية، وإلى جانبه،

مثل قط مشرئب، علي الجندي، الذي يمسح، بعيون جريئة، كل قادمة جديدة من اخمص القدمين حتى القذلة، وغير قادر على رؤية اي داخل، ذكراً، إلى ان يصبح امامه وجهاً لوجه، فيخرج صوته، الذي لا يزال يحمل بحة الطفولة، مرحباً او شاتماً. يجلس الاثنان إلى طاولة، وقد ارتفعت فوق رأسيهما لوحة مكتوبة بخط رديء: طاولة القلق!

معظم رواد الانكل سام من شباب الجامعة الامريكية، خاصة الاكثر غنى او الاكثر تيهاً، وبعض هؤلاء معني بالادب، والجميع غير معنيين بالسياسة! ومن رواده ايضاً اولئك الذين بدأوا الغزل في الجامعة ويريدون مواصلته بعيداً عن اعين الرقباء والمنافسين، ويكون الخفر قد تملكهم خلال اللحظات الاولى، لكنهم لا يزالون يأملون بحدوث معجزة تمكنهم من الوصول إلى النتائج المشتهاة، ومتسترين بالدوي الذي يملأ المكان، رغم الهدوء، وحالة التأمل، اللذين يلفان الطاولة الشرقية، طاولة القلق. ولان الحركة في المقهى ـ نصف المطعم سريعة، اذ تقتصر، في احيان كثيرة، على الفترة بين محاضرتين، فالجو يتغير بتغير الرواد، خاصة حين يصل بعض «فلاحي» السلمية حاملين معهم قصائد لم تستو بعد، وسلامات الاهل ورائحة الصحراء وغبار الطريق، اذ تتحول فجأة «طاولة القلق» إلى خلية للضجيج والفرح، ثم أخيراً إلى غرفة عمليات من اجل قيادة جحافل الشعراء لاسقاط الديكتاتورية!

اذا كانت المقاهي القريبة من الجامعة الاميركية على هذه الشاكلة، فان الهورس شو لا يصله الرواد الا متأخرين، وهم خليط من الفنانين والصحفيين، ومن الحالمين بالثورات الذين وصلوا توّاً إلى بيروت بعد ان يكونوا قد تواعدوا قبل شهور طويلة على اللقاء في هذا المقهى خلال فصل الصيف!

كان الهورس شو يضم رواداً دائمين وآخرين طارئين، رواداً لهم

مقاعد ثابتة راسخة كأنها العروش، بحيث لا يتصورون، ولا يحتملون، ان يعتليها احد غيرهم، ومن هؤلاء، على سبيل المثال، رفيق شرف وعصام محفوظ، ورواداً طارئين، وهم غالباً الذين اتوا من العراق والاردن والجزيرة، وفي حالات قليلة من المغرب الكبير. يدخل اغلب هؤلاء إلى الهورس شو، وقد اشتروا كمية كبيرة من الصحف، بحذر وبفضول، اذ يحدقون بامعان إلى الوجوه، يمسحون الطاولات كلها، علهم يعرفون احداً، او يعرفهم احد، فاذا لم يصطدموا بهذا «الأحد» توزعوا، متباعدين، ليطالعوا الصحف بسرعة، وكي لا يقرأوا شيئاً، لان اعينهم مركزة على الباب تستقبل اي زائر، ثم تنداح على الشارع الذي يعج بالبشر والسيارات، على أمل ان يكون الشخص القادم، الوجه الذي يليه، من ينتظرون!

وفي المقاهي الاخرى، القريبة، يتوزع «الادباتية» و«القضاة» الذين يصدرون الاحكام المبرمة على كل من يمر، على كل من يرد اسمه، وفي اية قضية، عرضت عليهم او لم تُعرض! ثم هناك الصحفيون المتدربون الذين ينتظرون فرصة العمر، وهؤلاء لا يترددون في الاقتراب من اي زائر جديد، إذ ربما يكون لديه الخبر الذي سيتحول إلى واحد من الاسرار الكبيرة والخطيرة وهو ينتقل من المقهى إلى احد مطابخ الصحف!

تشكل «الحمرا» حاجزاً بين الناس والبحر خلال النهار، لكن هذا الحاجز يتطامن ثم يتداعى ما ان تميل الشمس نحو المغيب.

ان «الحج» إلى البحر يبدأ عند الغروب، لكن لا ينتهي. وفي المقاهي المنتشرة قريباً من الروشة يتجمع الناس وكأنهم على موعد، اذ يظلون يتوافدون حتى ساعة متأخرة من الليل. والفضوليون الذين يبحثون عن الجديد والطريف يطيلون السهر كي يعرفوا عناوين صحف الغد وأهم الاخبار، ولذلك لابد ان ينتظروا ميشال ابو جودة، الذي لا يخلف موعداً، مهما تأخر! ويكون الرواد، ومعهم الفضوليون، قد

فرغوا من تحليل اهم القضايا واكثرها تعقيداً، وتوقفوا طويلاً عند احداث التاريخ وعبره، ثم انعطفوا قليلاً، وبنسب متفاوتة، نحو الذكريات، ليشيروا، من بعيد، إلى احداث وشجون كانوا ابطالها، او على الاقل مشاركين فيها، أو شهوداً عليها.

في تلك الحقب الذهبية، وكي يعرف الانسان اخبار بلده، كان عليه ان يزور بيروت، ان يقارن ما يعرف بما يسمع في هذه المدينة، لان هنا المطبخ الذي يهيِّىء كل انواع الوجبات: السريعة، والتي تتطلب بعض الانتظار، وتلك التي تحتاج إلى «تهيئة المواد»، او ربما التي تقتضي «التوصية» عليها.

وفي تلك المدينة تتجمع الاخبار والافكار والاحتمالات، ومعها الكتب الممنوعة، وبعض الاحيان اللقاءات المستحيلة في الاماكن الاخرى. يتم كل ذلك بنوع من البراءة المصنوعة ببراعة مدهشة، وبعفوية اقرب إلى المصادفة، بحيث يزول الحرج، وتتولد «العلاقات»، ويجري الغزل الناعم طويل التيلة، مع رنين الكؤوس والتبولة والنسيم العليل إلى جانب البحر أو في أحد فنادق الجبال القريبة، وغالباً ما يؤدي ذلك إلى نتائج تفوق التصور وقد تتجاوز المطلوب !

ولانه لا يمكن لمكان آخر في المنطقة كلها أن يكون بديلاً عن بيروت، فمن الطبيعي ان «يتوفر» الباهي في بيروت، حسب التعبير الذي يؤثره!

[7]

ربما لاول مرة يشهد شارع الحمرا في بيروت موريتانياً، مغربياً، سنغالياً، يجول بكثير من الثقة، وقد ارتدى ملابسه المحلية، وفوقها السلهام المخطط بالابيض والاسود، وكانت الابتسامة تفترش وجهه كله. كان ينظر إلى الاشخاص والاشياء بالفة اقرب إلى الحب، ويمشي متمهلاً وكأنه ليس في عجلة من امره.

كان منظره يثير الاهتمام والتساؤل. من هذا الرجل؟ ماذا يريد؟ ولماذا هو في بيروت؟ بعد التجوال في شارع الحمرا، ذهاباً واياباً، اشترى جميع الصحف، اليومية والاسبوعية، واقتحم الهورس شو!

واذا كان «الغرباء» الواصلون حديثاً إلى بيروت ينظرون إلى الصحف نظرة الطائر، وبعض الاحيان «ينقرون» الاخبار من هنا وهناك، فان «الغريب» الجديد غرق في تلك الصحف. كان يقلبها باهتمام، يقارن، يتأمل، وحين وصل الاصدقاء فوجىء بهم.

انها الزيارة الاولى التي يقوم بها الباهي إلى بيروت. كانت في الخريف المتأخر من عام 1961. وستدشن هذه الزيارة فاتحة علاقاته مع المشرق، لانها بدأت من المكان الصحيح، من بيروت، وربما في فترة من ادق واصعب الفترات التي مرت على المنطقة.

ما كادت ايام قليلة تنقضي حتى تخلى الباهي عن زيه المغربي، واندمج في حياة المدينة. اصبح يغشى المقاهي كاحد روادها القدامى.

واخذ ينتقل من طور السؤال إلى طور المشارك. اكثر من ذلك أصبح ضرورياً وهاماً لعدد متزايد من الصحفيين والسياسيين، فالثورة الجزائرية تتسع وتترسخ، وتوشك ان تحقق انتصارها الكامل، وكان لا بد من وجود من يستطيع تقديم صورة مليئة بالتفاصيل والاسماء عما يدور هناك، وليس اقدر من الباهي على القيام بهذه المهمة. واحداث المغرب تتشابك وتتداخل، وكان يفترض وجود من يحلل ويفسر هذه الاحداث، وما يمكن ان تؤدي اليه، وليس اجدر من الباهي على تولي هذه المسؤولية.

لقد جاء إلى الشرق مكتشفاً، فاصبح هو الاكتشاف! فالاسماء الكثيرة التي اخذت تظهر ثم تبرز في الفترة الاخيرة لثورة الجزائر، وكان بعضها غير معروف بالمقدار الكافي، بدأت تكتسي ملامحها واهميتها حين يسأل الباهي عنها. والمواقع العسكرية والجغرافية التي كانت مجهولة، او ترد باسماء متعددة، وغالباً مختلفة، تتحدد وتتوضح حين يتولى الباهي اعادة رسمها وتثبيت مواقعها، وهكذا اصبح للكثيرين ضرورياً او لا غنى عنه!

صحيح انه جاء لمهمات تتعلق بالثورة الجزائرية، وبالتالي لابد ان تكون اقامته في بيروت قصيرة، الا انه ترك اثراً لا يُنسى، اذ تكونت له صداقات وعلاقات بحيث اصبحت بيروت، المدينة والبشر، احدى ابرز محطات حياته، وسيتجلى ذلك اكثر من خلال مساهماته الصحفية في جرائد ومجلات بيروت، اضافة إلى الصداقات الوثيقة التي تكونت له فيها.

ان الطيور المهاجرة لا تطيل اقامتها الا في مواطنها، لكنها، مع ذلك، تترك اثاراً حافلة في اماكن عبورها، بحيث يتذكرها الكثيرون ما ان يعبر طائر او تخفق نسمة. وهكذا كانت زيارة الباهي العابرة والاولى إلى المشرق، بمثابة جسر، وسوف يتسع هذا الجسر ويقوى فترة بعد اخرى.

لقد نشأت علاقة بين الكثيرين والمغرب العربي باقطاره كلها من خلال الباهي، كما ان معرفة الكثيرين من المغاربة بقضايا الشرق وهمومه، ساهم الباهي في هذه المعرفة، ثم العلاقة.

[8]

في هذا العالم وجوه اذا قابلها الانسان، ولو لمرة واحدة، لا ينساها. قد لا يكون فيها شيء خاص او مميز، وقد تشابه وجوهاً اخرى، لكنها، مع ذلك، تنطبع في الذاكرة مرة واحدة، وربما إلى الأبد.

اكثر من ذلك، يظن الانسان حين يلتقي وجهاً من هذه الوجوه وكأنه يعرفه. والامر، هنا، لا يتعلق بما سمعه من الآخرين، او ما ارتسم في الذاكرة عنه من ملامح، انه يتجاوز ذلك، وقد تكون له علاقة بامور يصعب تفسيرها.

فحين نرى وجهاً من هذا النوع نحسه اليفاً، قريباً، ويعني لنا شيئاً خاصاً. يتولد هذا الانطباع، في مرات عديدة، من النظرة الاولى، من اللقاء الاول، ولان الأمر بدأ هكذا لا يكلف الانسان نفسه عناء السؤال، بل وقد لا يخطر بباله مثل هذا السؤال.

اكثر من ذلك. . لا يتذكر الانسان، الا نادراً، متى التقى هذا الوجه او اين. انه قديم إلى درجة انه كان في الذاكرة منذ بدأت الذاكرة تدقق فيما حولها، لتعرف وتكتشف. وانه اليف إلى درجة لا يتطلب اعادة الاكتشاف، تماماً كما يألف الانسان وجوه الأم والأب والأخوة، ثم الأصدقاء!

في وقت ما، وقد يأتي هذا الوقت وقد لا يأتي، يبدأ الانسان بالسؤال والتدقيق، وهنا تختلط الاشياء والاوقات إلى درجة ان التفاصيل تضيع، تتداخل، وقد تتشوش أيضاً، بحيث ان الملامح التي يراد الاشارة اليها، الصفات التي تميز هذا الوجه، وتجعله مختلفاً عن غيره، تبدو غير كافية، او ليست مهمة، وربما لا تعني بدقة الشخص الذي نعرفه، الشخص الذي نحبه.

التفاصيل اذن، اية تفاصيل، مهما كانت دقيقة، تحول الانسان إلى اجزاء، وهذه الاجزاء رغم تجاورها، رغم الدقة التي توصف بها، لا تعني الانسان الذي نعرفه، الوجه الاليف الذي كوّن بداية العلاقة، ثم اوغل في الغياب، إلى درجة انعدمت الصلة بين الكل والأجزاء.

في لحظة ما قد تنبثق ومضة او ترن ضحكة، فتحمل من جديد، عالماً بأسره. وهذا العالم يحفل باشياء كثيرة متداخلة، متشابكة، لكنها غير واضحة وغير مترابطة أيضاً، فتخلق مدى لا يعرف الانسان كيف خلق او لماذا، او ماذا يريد ان يقول او يذكر.

قد نجد بعض التفسيرات، لكن كمّ المجهول يفوق اي وضوح، ويتجاوز كل تفسير. فالتداعيات التي بدأت من زاوية مظلمة في الذاكرة تظل تتدفق وتتوالى متخطية المسافات والدلالات، لتصل، بإحكام نادر، إلى الارتباط بسلسلة حريرية يصعب الافلات منها، او اخضاعها إلى منطق يمكن السيطرة عليه.

والانسان الميال سلفاً إلى وضع كل من يلتقيه، كل ما يقابله، في خانة ليسهل التعامل والرجوع اليها، يجد ان من نحب، او ما نحب، يصعب حصره في تلك الخانة، ولذلك يتم اللجوء إلى تحريض الذاكرة علها تستعيد لحظاتها الاولى، وترسم، من جديد، الطريق الذي سلكته للوصول، فيكتشف انه دخل في دهليز مظلم، قد تكون له بداية، لكنه لا ينتهي!

واذا كانت العلامات الدالة او الفارقة: ملامح الوجه، لون البشرة،

الطريقة في الكلام او التصرف، او حتى نظرة العين، وعشرات الفروق الاخرى، تميز انساناً عن آخر، فان تلك العلامات قد تساعد في تحديد بعض الوجوه، تعطيها ملامح تميزها عن غيرها، لكن الانسان القابع وراءها يصعب حصره او تحديده بواسطة تلك العلامات وحدها، اذ يظل اكثف واغنى منها، وربما غيرها!

في بعض الاحيان يفطن الانسان، او يأتي من ينبهه، إلى ان الشخص الذي يعرفه يتلخص ببضع كلمات: «ذلك الاسمر الداكن البشرة» «صاحب الاسنان الكبيرة التي تشبه اسنان حصان» «ذو الشعر الاسود الكثيف» «ذو الصوت العالي مثل اصوات الدلالين او الوعاظ».

وقد يختزل الانسان اكثر: «ذاك الذي لا يعرف كيف يلبس» «ذاك الفوضوي الهائم في محطات المترو والشوارع» «الذي لا يعرف كيف يعقد ربطة العنق» «الصعلوك المتشرد» إلى عشرات الصفات الاخرى، والتي قد يولد بعضها عفو اللحظة او دون قصد سابق.

اكثر من ذلك، يمكن ان تذكّر به، او تحاول الوشاية، الاشياء والاماكن، وتختلف هنا الاوصاف تبعاً للنظرة، للموقف، للعلاقة. فحين يتلى الشعر بطريقة رديئة نتذكر من يتلو الشعر بطريقة جيدة، وحين نصادف شرهاً، ويشرب مثل ضفدعة، نتذكر من يفعل العكس.

ان نظرتنا تقول لنا كيف نرى كل ما حولنا، وهذه تكتسب صفاتها لا من ذاتها وانما من الآخرين، والآخرون عالم بلا ضفاف، وفي هذا العالم مَرَّ احد امراء هذا العصر: الباهي، والذي يستعصي على اي وصف او تلخيص!

اذا كانت الملامح وحدها لا تشي بالشخصية، في احيان كثيرة، ولا تحددها، فان بعض الملامح من القوة إلى درجة تصبح كالقرينة، او القرينة ذاتها، فما ان تصطدم بها العين، او تتلقفها الاذن حتى تتحول إلى حضور لا يمكن تجاوزه او اهماله.

فتلك السمرة الطينية التي قد لا تعني صفة مهمة على ضفاف نهر

السنيغال، لان اغلب الناس هناك يشتركون بهذه الصفة، تصبح احدى العلامات المميزة، بل الفارقة، في مدينة مثل باريس. وحين تضاف إلى تلك السمرة الاسنان البيضاء البارزة، والتي تشبه اسنان الارنب والحصان معاً، لبروزها وانتظامها، اضافة إلى البياض، مع الضحكات الصاخبة الرنانة التي لا تغيب الا قليلاً لتظهر اقوى من قبل، الامر الذي لم يألفه الفرنسيون، خاصة حين تضجُ في المقهى او محطة المترو، وتترافق مع حركات صاخبة للايدي، وهي تشرح وتوضح وتضيف، عندئذ تصبح القرينة دليلاً وتأكيداً للشخصية.

أما حين يتحول الاسم المفرد إلى صفة او اكثر، يصبح وحده، حين يُذكر، بالغ الوضوح والدلالة، وينطبق على شخص بذاته وبمفرده، رغم ان آخرين يشتركون معه بنفس الاسم، لكن يضطرون من أجل ان يحددوا انفسهم، او تتحدد شخصياتهم، بنظر الآخرين، ان يضيفوا كنية او لقباً كي يتميزوا، وبالتالي ليتحددوا، فان اسم الباهي ينطبق عليه وحده، ويحدده دون اضافة من اي نوع، فما ان يذكر اسم الباهي، وفي اي مكان، حتى يصبح هو المقصود.

عدا السمرة والاسنان وذلك الاسم «الباهي»، فان هناك مجموعة من الصفات والعادات تنطبق عليه اكثر مما تنطبق على غيره. فالشعر الكث، الطليق، وقد اصبح هكذا نتيجة الاهمال او النسيان، ولا يمت للغواية بصلة، يميزه اكثر مما يميز غيره، رغم ان كثيرين يشاركونه هذه الصفة، خاصة في باريس!

أما الاهمال في الملبس فلديه اوضح مما لدى الآخرين، فهو ليس معنياً باختيار الالوان التي تلائم ذوي البشرة الداكنة، وليس معنياً بارتداء الموديل السائد! وحين يرتدي الواناً متنافرة فيما بينها، تصبح الوانه، وربما وحدها التي تلائمه! أما ربطة العنق التي كانت تتبدل بين موسم وآخر، وكانت مثار اهتمام وافتتان الشباب، فاغلب الظن ان الباهي لم يستعملها الا مضطراً، وما يكاد ينتهي من هذا الاضطرار

حتى ينتزعها بعنف لا يقل عن العنف الذي يستعمله في لوي رغيف الخبز لكي يبدأ بتناول الطعام، والذي يقبل عليه بلذة وفرح، وكأنه طقس يولّد في قلبه وجسده المتعة والفرح.

في وقت متأخر ستصبح الاكياس البلاستيكية احدى العلامات التي تميزه عن اغلب الذين حوله، اذ في الوقت الذي يجاري الكثيرون العرف السائد من حيث استعمال الحقائب اليدوية، او تلك التي تعلق على الاكتاف، وكانوا يتبارون في اختيارها وتغييرها، تعبيراً عن الموقع والاهمية والحرص، وبعض الاحيان بما يتلاءم والملابس التي يرتدونها، فان هذا الرجل لم يعبأ، او ربما لم يفكر، ان «يطور» ادوات الحمل والنقل الخاصة به، أو لمجاراة الآخرين والذوق السائد، إذ ظل الكيس البلاستيكي يلازمه، ويعتبره أكثر تلبية لما يريده منه، فهو للكتب والجريدة وبعض الاوراق التي يحملها.

أما السجائر، والتي يضعها الكثيرون في جيوب قريبة، وما يكاد الواحد يجلس في مقهى، حتى يستخرج سجائره وولاعته بطريقة لا تخلو من براعة، ويضعها على الطاولة وبمكان ظاهر، فان من لا يعرف الباهي جيداً، وفي كل اطواره، لا يقدّر ما اذا كان هذا الرجل يدخن ام لا، ولا يعرف ان كان يحمل سجائر ام لا، لانه مثلما لا يفطن لالوان الملابس فانه ينسى التدخين في بعض الاحيان، ويتذكره في احيان اخرى، ليس لانه توقف عن التدخين، وانما لان الامر مجرد نسيان! حين يتذكر يستخرج من جيب داخلي سجائره، وهي غالباً من نوع يختلف عن الآخرين، ويبدأ. وينسى بعد قليل، ليتذكر في وقت متأخر، معتذراً عن السجائر التي تقدم اليه!

وقد تمر فترات طويلة لا يدخن خلالها، حتى ليُظنّ انه اقلع عن هذه العادة، لكن لا يلبث ان يكسر كل توقع!

واذا كانت شهية الباهي للتدخين قليلة، فانه يجد تعويضاً في كل ما يتعدى ذلك. اذ يجد متعة في الكلام، في المشي، في الاصغاء إلى

الآخرين، في الاكل والشراب، وأيضاً في تذوق الجمال الانساني!

قد يكون من السابق لاوانه تخطي المراحل والازمنة، وتلخيص الرجل بمثل هذه الصفات، التي اشرنا إلى بعضها، قبل ان نعرف مسيرته والمحطات التي توقف فيها، وكيف ان بعض الاحداث والاماكن اعادت صياغته، مرة بعد اخرى، حتى اكتسب تلك الشخصية التي لا تقولها الملامح الظاهرة، او تلك التي تتخفى وراء الضحكات الصاخبة، وذلك السلوك العدمي الذي يقول، في احيان كثيرة، كل شيء، ولا يقول شيئاً واضحاً، محدداً ونهائياً، لان الامور من التعقيد إلى درجة تستعصي على التفسيرات السهلة، مثلما تستعصي على التحديد.

[9]

يحظى سمك السلمون لدى الباهي باهتمام خاص، ليس كوجبة طعام، وانما كمخلوقات لها من الصفات، كما يقول، ما تستوجب التقدير، وربما افضل مما لدى البشر!

الحديث، في مرات كثيرة يبدأ بالانسان، بالبشر، باناس محددين، لكن غالباً ما ينتهي بعالم الحيوان، او عند تخومه!

«فاذا افترضنا ان الانسان انبل مخلوقات الله، من حيث العقل، فانه، بنفس الوقت، اسوأ هذه المخلوقات من حيث التصرف والسلوك».

يقول ذلك، بنوع من الحسرة ثم يضيف: «اذا كان العقل زينة الانسان، والصفة التي يدعي انها تميزه عن المخلوقات الاخرى، واذا استطاع الانسان ان يروض الحيوان ويخضع الطبيعة ويسخرها لمنافعه، فلماذا تحول إلى عدو لنفسه، لبني جنسه؟ لماذا يصرّ على الانتحار، او على قتل الآخرين مجاناً!؟ كيف يستطيع ان يكون قاسياً، انانياً، هكذا؟ ولماذا يأبى الا ان يبقى صغيراً هكذا!؟ وهل هو يتمتع بالقدرة على المحاكمة والوصول إلى افضل الحلول لنفسه، لنوعه، فعلاً؟»

الاسئلة الصغيرة، السهلة، هي اكبر الاسئلة واخطرها، لان مثل هذه الاسئلة تضع الانسان في مواجهة نفسه، في مواجهة الامور

المصيرية التي تحدد وضعه ومستقبله وعلاقاته مع الآخرين، واغلب الاحيان بشكل مباشر، دون تحدٍّ ودون احراج، وبالتالي عليه ان يجد لها جواباً، ان يتخذ منها موقفاً، لان على ضوء الاجابة والموقف تتحدد امور كثيرة، بما فيها التصرف، والعلاقة بما حوله من بشر وطبيعة، واخيراً موقعه في هذا الكون وعلاقته به!

سمك السلمون لا ينسى رائحة التراب، لحظة عناق الحياة، والنطفة الاولى تظل تلازمه، تحدد مساره. وهو بمقدار ما يتمرد ويمضي بعيداً لا يمكن ان ينسى بداياته، حنينه إلى الماء والتراب اللذين تكّون منهما، ويظل كذلك حتى لحظة الغياب.

ومثل السلمون الحيوانات الاخرى. قد تسرف في الهجرة، في البعد عن المكان الاول، لكن غريزة خفية تسيطر عليها، تجعلها لا تنسى، وقد تحملها على العودة، مرة اخرى، إلى البدايات ذاتها.

الانسان اكبر نسَّاء في هذا الكون، ويقولون انه اكتسب اسمه من النسيان بالذات، لذلك يسرف في اعتماد صفة النسيان، يحولها إلى غريزة جديدة تحكم سلوكه وعلاقاته بالآخرين، ويستغل هذه الصفة كي يكتسب جلداً يناسب الحالة!

الباهي والحيوان توأمان.

ويجب ان لا يفهم من هذه الصفة أي شيء سلبي. فحين يغرق في عالم النمل، ليعرف كيف تتصرف هذه الكائنات في ترتيب ممالكها، بدءا من انتخاب الملكة الام، والتي تتوفر فيها كل الصفات التي تؤهلها لأن تكون ملكة، مروراً بتراتبية لا تعترف بالخطأ، ولا تتسامح تجاه الاهمال، ثم التعريج على واجبات الاناث والذكور، والحراسات، ونقل الاخبار، وحماية المؤونة، وأيضاً تعريضها للشمس اذا اصابتها الرطوبة، ومعرفة مواعيد سقوط الامطار، والاحتياط لذلك في الوقت المناسب، وكيف تستطيع هذه الكائنات ان تجزىء البذرة مرة او مرتين لمنع الانبات اذا تعرضت للرطوبة. . .

حين يستعرض احوال هذه المملكة بجميع التفاصيل الصغيرة، الهامة والذكية، لا يكتفي بالابتسام اعجاباً وتقديراً لعبقرية هذه المخلوقات، اذ يمضي مباشرة، وبسخرية، كي يقارنها بـ«ممالك» الانسان، هذا المخلوق البائس الذي أضَرَّ به العقل، وجعله ضعيفاً مستسلماً هكذا.

ومن النمل ينتقل إلى القرود، كي يقترب ويبتعد، بنفس المقدار، عن ممالك البشر! فالقرود تتعلم بالتجربة، بالتقليد، وتعتمد على القوة العضلية، كما تخضع لاعراف تحدّد لها كيف يجب ان تتصرف، وما هو المسموح به وما هو الممنوع، تبعاً لاعتباراتها الخاصة التي تخضع لها، ولا ينسى ان يشير إلى الشبه بينها وبين البشر! عالم القرود يثير لديه اسئلة اكثر مما يتصور الانسان في البداية، الامر الذي يجعله يعيد التفكير ويرفض الاجابات الجاهزة. وتمضي ليلة، ليلتان، وعالم القرود مسيطر، فقد اكتشف في هذا العالم من العجائب والقضايا التي تستدعي التأمل، وتالياً تقدم درساً للانسان كي يتعلم، لكن الانسان لديه من العناد والكبرياء ما يجعله يرفض اي تعلم واي تعليم!

ومثلما تابع هجرة السمك، فان هجرة الطيور تثير دهشته. والدهشة تقود إلى الاسئلة، والاسئلة تؤدي إلى البحث، واذا بدأ الباهي بالبحث فانه يغرق فيه، لا يعرف هماً او هاجساً اكثر الحاحاً واكثر اهمية منه.

وفي هذا المجال، واذا اخذ الحديث هذا المسار، فان الباهي يبدأ، لكن لا يعرف اين ينتهي او كيف ينتهي. وكل ما يقوله اسئلة، احتمالات، حالات، اكثر مما هو اجابات.

عالم الحيوان يفتح شهيته، يستفزه، يجعله انساناً حائراً مدهوشاً، واقرب إلى الاستغراب، اذ كيف استطاعت تلك المخلوقات ان تنظم عوالمها ولم يستطع الانسان!

يتساءل ويقارن، ويظل حائراً، خاصة في قدرة هذه المخلوقات على الدفاع عن النوع وليس عن الفرد، وبالتالي حماية عنصر وارادة

البقاء. كيف، وأيضاً لماذا، استطاعت هذه المخلوقات ان تنظم علاقاتها؟ هل تمتلك غريزة او ادراكاً يمكنها من الدفاع ولا يستطيع الانسان ذلك؟ لماذا تحول الانسان إلى اداة لاغتيال الآخر ثم اغتيال النفس، وبالتالي تدمير الحياة الانسانية؟

المقارنة بين عالمي الانسان والحيوان، والاشارة إلى الفروق المفجعة في هذا المجال، تثيران الباهي إلى اقصى حد. ليس ذلك فقط، كان يدعو، وبالحاح، إلى تأمل عالم الحيوان للإستفادة منه، أو حتى تقليده!

في احدى لحظات الحزن، وكي يمنع ما هو اسوأ، دعاني لزيارة مقبرة الكلاب في باريس.

انها احدى المقابر التي يشعر فيها الانسان بعلاقة حقيقية مع الطبيعة، الام الكبرى. صحيح انها لا تخلو من ترف، ولها علاقة بالمال والذكريات، لكنها لا تخلو من معنى الوفاء.

كانت امرأة تجرُ كلبين، وبمقدار ما كان الكلبان يبدوان متشابهين من حيث الشكل والحجم، فقد كانا ظاهري الاختلاف من حيث السلوك. والباهي الذي كان ماخوذاً بالجد وبالكآبة المسيطرة عليه، شعر ان كلباً اقوى من الآخر، واكثر عدوانية، وبدا له ان هذه الصفات في التعامل بين الاخوة ليست جديرة بالاحترام! فما كان منه الا ان ذهب لصاحبة الكلبين، وقال لها، بطريقة لا تخلو من عصبية، «اقطعي نسل هذا الكلب واعتني بالآخر». والمرأة التي كانت بين الحزن على أب، او ربما جد الكلبين، وبين العناية بالاحفاد، قالت، وبطريقة ساخرة:

ـ انظر، ايها السيد، ان تصرفات البشر حولنا لا تخلو من القسوة والعدوانية، فلماذا تريد ان تجعل الكلب افضل من البشر؟

تطلع اليها ملياً، وهو يهز رأسه، وقال لها:

ـ لو كنت اتصور ان البشر احسن من الكلاب لما كلفت نفسي

المجيء إلى هذا المكان . .

واضاف بعد قليل وهو يبتسم:

ـ لكن يبدو ان حيوانات العصر الذي نعيش فيه اكتسبت الكثير من صفات البشر، وهذه اكبر خسارة!

تشاغلت المرأة، سحبت الكلبين، وبدت لهجتها، وهي تتحدث اليهما، اكثر قسوة، وربما زاد حزنها على الكلب الذي جاءت من اجل زيارته، ولأنها جلبت إليه كلاباً من عصر آخر!

[10]

من سمك السلمون وممالك النمل والنحل. . . إلى ظواهر الطبيعة حولنا.

في احدى الليالي، وكان القمر بدراً، بدأنا رحلتنا من الحي اللاتيني، ولم نفطن الا ونحن عند الضواحي.

كان الحديث طوال الرحلة، التي استمرت اكثر من ثلاث ساعات، حول القمر، وكأن الباهي استعد لهذا الحديث منذ وقت مبكر!

بدأ الحديث عن قمر الطفولة، وما كان يولده في عقله وقلبه من احلام ورغبات واسئلة، وكيف كان يقضي ساعات متواصلة وهو يتأمل هذا المركب الذي يبحر في السماء دون توقف، ولا يعرف اين يذهب او من اين اتى. كانت هذه الرحلة تثيره، ويتمنى لو تتاح له الفرصة ليبحر على هذا المركب السماوي. أما عندما يتذكر القمر ومياه المحيط، وما يخلفه من مد وجزر، وكيف تتغير الطبيعة ومخلوقات الاعماق، ورحلات الصيد، فكان الامر يثير ذهوله، ويجعله معجباً ومتسائلاً وخائفاً في آن واحد.

وفجأة ينتقل إلى مشهد مماثل رآه في وقت لاحق في البصرة، على الطرف الاقصى من الوطن، وكيف ان مياه قنوات العشار وشطّ العرب ترتفع إلى درجة الادهاش ثم تغيض حتى الغياب، تقريباً، خلال

ساعات، بحيث تضطر الانسان إلى التساؤل والتأمل في محاولة لتفسير هذه الظواهر. . . و«بعض الناس لا يفطن لذلك».

هكذا يقول وهو يهز رأسه عجباً وسخرية!

واذا كان قد بدأ حديثه عن القمر من خلال الظواهر المرئية، فان الرحلة إلى الداخل اكثر ادهاشاً، لان القمر ليس ذلك القرص الاصفر المعلق في الفضاء، والذي لا يتعب من الانتقال من ضفة إلى اخرى، وانما ما يولده في جسد الانسان وفي روحه، والذي لا يقتصر على الاحاسيس الراعشة، على الجمال الذي يستعصي على الوصف، وانما يتجاوز ذلك إلى الآثار المادية التي يولدها في جسد الانسان، وكيف ان قوى كامنة، وبعض الاحيان خفية، تنتفض نتيجة ما يحدثه فيها القمر من تأثير.

تحدث الباهي، تلك الليلة، عن علاقة اكتشفها، او ربما سمع بها لما كان صغيراً، عن القمر والجنس والحمل، وكيف ان النسوة على ضفاف نهر السينغال يمارسن الحب في ليالي القمر بطريقة تختلف عن الليالي الاخرى، وان هذا يجري ليس نتيجة الوعي او الرغبة، وانما بتأثير عوامل يصعب تفسيرها بمعزل عن القمر. كما ان الاولاد الذين يولدون في مثل هذه الليالي، ونتيجة لها، يتسمون بصفات تجعلهم مختلفين عن الآخرين.

ولا ينسى ان يتوقف عند الخسوف، وكيف تبدو هذه الظاهرة في الصحراء، كيف ينظر اليها البدو، ومدى تأثيرها على الحيوانات، «وربما على النبات أيضاً» وهذا ما سيؤكده العلماء مستقبلاً!

ويبدأ، بعد ذلك، حديث النجوم التي تملأ ليالي الصحراء، وكيف يُلزم الطفل الصغير بمعرفة مواقع الكواكب وتمييزها، وكيف يوقظ الاطفال في ساعات الليل المتأخرة لكي يمتحنوا بهذا الدرس، كما يمتحنوا بسور القرآن في اول المساء، لان من يخطىء بمعرفتها قد يتعرض إلى الموت عطشاً، كما يقول الكبار.

يتحدث ويتلفت في ليل باريس الاغبش بحثاً عن النجوم، وحين لا يجدها، حين تختلط بالهباب، بالجو الرمادي العكر الكتيم، يقول بصوت ساخر:

ـ المدن الكبيرة مثل المداجن الكبيرة يتشابه فيها الناس مثل تشابه الدجاج في الاقنان، أما الطبيعة، أما معالم الكون فلا تزيد بنظر الكثيرين عن كونها قطعاً نقدية متشابهة.

ومن نجمة القطب إلى طريق التبّان، وقدرة الصحراء على ان تحوّل هذه القطع النقدية المتشابهة، بنظر ابناء المدن، إلى كائنات حية، بسبب الضوء الذي يتدفق منها، من الرعشة التي تسري بشكل مفاجىء، من الظهور والغياب بمواعيد لا تخطىء ابداً. كل ذلك لا يمكن اكتشافه وادراك أهميته الا في الصحراء.

ومن نجم إلى ثان، ومن مدار إلى آخر، يتحول الانسان إلى مخلوق اثيري في هذا الكون الفسيح الذي لا يمكن ادراكه الا اذا ابتعد إلى مسافة معينة، بحيث تصبح رؤية الاشياء ممكنة، ممتعة، وبالتالي تحدد موقع الانسان تجاه كل ما حوله، ولاحقاً موقعه في هذا الكون.

أما حين يبدأ الحديث عن عمر الكون، فان حديثه يأخذ سمة السخرية الاقرب إلى الهزء. فالطبيعة والكون لم يأخذا هذا الشكل، ولم يصقلا حتى اصبحا هكذا الا بعد مرور مئات الملايين من السنين، وجاء الانسان، خاصة المعاصر، ليفسد، وخلال اعوام قليلة، كل ما بُني، كل ما تكوّن عبر هذه الملايين!

ان الطبيعة، بكل مكوناتها، نتيجة فعل متواصل، وتراكم لم يتوقف، إلى ان اكتسبت هذا القوام واخذت هذا الشكل، ولذلك لا يجوز لبضعة افراد مجانين ان يتحكموا بهذا الكنز من حيث الامتلاك او الاخضاع، لان الطبيعة قوية إلى درجة تعرف كيف ترد، كيف تنتقم.

ويفتح الباهي قوساً في الحديث عن الزلازل والبراكين والفيضانات، ويضحك بصخب، وقد تذكر شيئاً:

ـ الطبيعة انثقبت، الطبيعة انتهكت، وواحد من فوق يمد اصبعه للناس، ويقول لهم: خذوا يا اولاد. . .

ولا يكتفي بالشتيمة، يقولها، يحرك اصبعه كي تكون الدلالة اكثر وضوحاً!

علاقة هذا الرجل بالطبيعة هي مزيج من الوله الصوفي، إلى الاعجاب الذي يصل حد التقديس، إلى الدهشة حتى العجب. وبمقدار ما هذه العلاقة اكيدة قوية، فانها في حالات معينة متلعثمة، لان الطبيعة، كما كان يردد، اكبر من ان تختصر بكلمات، او ان تحدد بلحظات، اياً كانت هذه او تلك، فالطبيعة لا تعرف السكون، وافضل تعبيراتها حين تجن، لانها تقول للانسان بطريقة يفهمها: من انت ايها المخلوق العابر ازاء السرمدية التي ليست لها بداية ولا تعرف اية نهاية؟

[11]

لا يقتصر اهتمام الباهي على الظواهر الكبرى، ففي احيان كثيرة يهمل هذه الظواهر وينصرف إلى الكائنات والمخلوقات حوله!

فالكلاب التي تعوّد زيارة مقابرها، وكان يقضي ساعات في مثل تلك الزيارات، بمقدار ما تثيره في رقادها الابدي، وعلاقة الناس بالذكرى، فان حياتها، او الوقت الذي تقضيه على اليابسة، كما يقول، لا تقل اهمية.

اكتشف، ومنذ وقت مبكر، ان هناك شبهاً، وهذا الشبه يزداد، بين الكلب وصاحبه: نظرة العيون، طريقة التصرف، وربما اشياء اخرى!

كان في لحظات معينة ينخرط في ضحك هستيري، يحاول بصعوبة ان يخفيه، حين يكتشف شبهاً، اقرب إلى التطابق، بين الكلب وصاحبه! يقول، وهو يضع يده على فمه، في محاولة يائسة لان يخفي نواياه: انظر إلى الآذان، أذنا الكلب وأُذُنا صاحب الكلب! انظر إلى الرجل اليسرى وكيف ينقلها ببطء مثل صاحبه! انظر إلى فتحة العينين. . .انظر!

وبطريقة شاقة ينقذ نفسه اذا انتبه صاحب الكلب. يحاول رشوته بابتسامة، بسؤال عن الوقت، وبعض الاحيان بسؤاله عن اسم «المحروس» او عمره!

العادة والتكرار هما اللذان يخلقان الانسان، هكذا يقول بكثير من الثقة.

واذا بدأ بعالم الكلاب فان من يسمعه، لا يعرف تخوم هذا العالم، اين يبدأ وكيف ينتهي. فهو بمقدار ما يراقب هذه المخلوقات التي تدب في كل مكان، وتملأ جادات باريس في معظم الاوقات، فانه يختزن في ذاكرته كماً هائلاً من المعلومات حول السلالات، والفترات الزمنية التي دجنت خلالها، ثم الفترات الزمنية اللاحقة التي تم تهجينها، وما استحدثت من سلالات جديدة وصفات ومزايا. ايها للحراسة، وايها لفراش العوانس! ايها لتتبع الاثر واكتشاف الجرائم، وايها لليالي القمر وخدمة العشاق. ولابد ان يعرج على ما قاله الجاحظ حول الكلب، وحول الجعل، وأيضاً حول ابن عرس!

وما دام باب الحيوان قد فُتح، فاغلب الاحيان لا يمكن ان يقفل، فالحادثة تجر الاخرى، والحيوان يأتي بغيره، والعجيبة تستولد ما هو اعجب منها، ولذلك فان من الخطورة بمكان فتح موضوع آخر.

وما يكاد الكلب يقف في الوصيد حتى يأتي حيوان آخر.

الجعل كان احد المخلوقات الذي ادهش الباهي إلى اقصى حد، اذ كيف يمكن لمخلوق ان يقضي من رائحة الورد؟ قال الجاحظ: «ومن اعاجيب الجعل انه يموت من ريح الورد، ويعيش اذا اعيد للروث». ليس ذلك فقط، اصبح الجعل احد الاسرار، بين الباهي وبعض الاصدقاء، وقد تطلق كصفة على بعض الاشخاص والحالات «السميكة». كان يقول بمكر:

ـ فعل جعل من اعجب الافعال، لان ما يحتويه من امكانات تفوق الافعال الاخرى!

هذا القول الماكر قد يجوز على كثيرين، لكن في لحظات معينة، وان تكن قليلة، وعادة حين يغرق الباهي في الحزن، أو ضيق الروح،

ينفجر بحالة من الضحك المدهش، بحيث لا يعرف من يجالسه ما حل به او كيف يتصرف.

وبعد الكلاب والجعلان هناك وقفات طويلة عند الطيور المهاجرة. كان يروق له ان يستقصي عالمها العجيب، خاصة هجراتها: لماذا تحصل وكيف تحصل؟ وهل هي بدافع البحث عن الغذاء او الدفء، او ربما من اجل التناسل وحفظ النوع؟

كان يقول ذلك وفي ذهنه هجرات من انواع اخرى. هجرات البشر، خاصة من الشمال الافريقي إلى فرنسا وإلى دول اوروبية اخرى. وكيف هي حال المهاجرين، وما يعانونه من قلق وعنت وألم، في الوقت الذي تسبح الطيور في هذا الفضاء الذي لا يعرف القيود او الحدود، وأيضاً تعود، في النهاية، إلى مواطنها. أما البشر المهاجرون فانهم ينتقلون ولا يهاجرون، يتحركون لكنهم لا يتغيرون، وفي الإنتقال والحركة، في ذات الموطن او في مواطن اخرى، يمتلئون احزاناً واشواقاً، وتغرقهم تلك الاحزان، وتظل الاشواق حافزاً على ما تبقى من ايام، حتى اذا حلت النهاية، اية نهاية، ضاع الجيل اللاحق، الامر الذي لا يحصل مع الطيور.

هجرة الطيور بداية الذاكرة والتاريخ والحاجة والضرورة، وباب الحزن ايضاً. واذا كان الباهي شديد التعلق بهذه البوابة، فانها تنفتح على كل ما يحزن، يعذب، يستدعي الماضي والحاضر معاً، وهو شغوف بذلك، اذ بمقدار ما يحكي عن عالم آخر، فانه يقصد هذا العالم على وجه التحديد!

وينزلق، دون ان يحس، من عالم الحيوان إلى عالم النبات.

الباهي والربيع حالة لا يمكن تفسيرها بسهولة. فاذا كان قد اكتشف، عرف او سمع، بتلك العلاقة بين الانسان والقمر، فان الربيع تحد بالنسبة له دائم التكرار. كان يذرع ضفاف السين لايام عديدة

متوالية كي يكتشف اول ازهار، اول براعم او اوراق خضراء. ولفرط ما ذرع الرصيف المنخفض من السين فقد عرف الاشجار كلها، عرف الزوايا والمنحنيات، اين تمر الرياح الباردة واين تحتجب، وتوصل إلى معادلات من نمط خاص، فهو يعرف الاشجار التي تزهر قبل غيرها، وهناك كان يقضي اوقاتاً وكأنه يتعبد.

لو ان البشر يقيمون علاقاتهم بالبشر الآخرين والكائنات حولهم، كما كان يفعل الباهي، لامكن اختصار الكثير من سوء الفهم والعداء والكراهية، لكن الجهل، كان وسيبقى، عدو الانسان، وهذا ما كان يحاول الباهي تجنبه.

اذا ازهرت الشجرة الاولى، وكانت لا تبعد عن الحي اللاتيني، في الضفة اليمنى للسين، كان الباهي يزهر، يتورد، وبعض الاحيان يجن. «لقد افصحت الطبيعة عن عبقريتها مرة اخرى» هكذا يقول بعد ان يكون قد عاد توّاً من لدن الشجرة المقدسة. كان يتحدث عنها كما لو انها الشجرة الاولى، اول حالة إزهار في الطبيعة! وبعض الاحيان يسرف في اعطاء الاوصاف، في ابراز قوة الحياة، وتلك القدرة الدائمة التجدد، والتي تتحدى الانسان في نفس الوقت.

اظن ان علاقة خفية، لكنها شديدة الجموح، بين الباهي وكل ما حوله من كائنات واشياء، حتى ليظن الانسان انه جزء من الاشجار ومياه الانهار وهبات الرياح، وربما كان، او سيكون في يوم لاحق، شجرة او غيمة، او سيتحول إلى شيء ما لا يمكن ان يُسمَّى!

حين تستفحل الطبيعة في داخل الانسان، حين تصبح جزءاً من كينونته، فان هذا الانسان يصبح اكثر قوة واكثر تواضعاً، اذ يعرف كيف يتكيف في اطار الطبيعة، كيف ينسجم معها، وهذا ما يجعله اكثر قوة، في نفس الوقت الذي ينضم إلى هذا الموكب اللانهائي من العناصر والكائنات والازمنة التي تجعله ينساب في نغم ابدي، حيث يصبح عنصراً، لحظة، ذرة، في كون لا يعرف الانتهاءً.

ويبدو ان الباهي، في لحظات كثيرة، براقة، ادرك انه جزء من هذا الكون، فتواضع، ولم يتشبث، وكان منسجماً أيضاً مع كل ما حوله من كينونة حقيقية، وليس فقط جاهلاً عما يجري في الاعماق، او في الفضاء البعيد!

[12]

قد تتخفى، بالنسبة لكثيرين، طبيعة الانسان وجوهره، تحت ثقل المكياج المفروض او المصنوع، وربما بتأثير الاضافات المكتسبة التي تراكمها الايام، او يحدثها الانتقال من مكان إلى آخر.

لكن الطبيعة، مهما تخفّت، فانها تفضح نفسها في بعض الاحيان: تفضح نفسها من الملامح، من طريقة الكلام، ومن طريقة التفكير والتصرف. فحين يزوبع العنف الداخلي، وغالباً ما يفجره الحنين، فانه يعبر عن نفسه بالشتائم، بالبكاء، وبعض الاحيان بالضحك الصاخب الهستيري الذي يمتزج فيه الحزن بالفرح، برغبة الطيران والعودة إلى المكان الاول، النبع الاول.

والباهي الذي قضى في الحواضر أضعاف المدة التي قضاها في البادية، وقضى في عاصمة العالم، باريس، اضعاف الوقت الذي قضاه في اي مكان آخر، كان يحمل معه، اينما ذهب، وفي اي مكان استقر، «باديته». كان يحملها كهوية، كتميمة، كشيء لا يمكن ان يفارقه أو يفترق عنه. كان يحمل معه العجاج والصوت العالي، وذلك الوجه الصريح الاقرب إلى وجوه الاطفال. صحيح ان سحنته كانت تفضحه وكذلك شعره الاجعد، وبالتالي يمكن ان يصنف، مثل اجانب كثيرين، وغالباً ما يُصنَّف بين حدين متباعدين، بدءاً من كوبا وانتهاء

باندونيسيا، لكن ذلك لا يدوم طويلاً، فهويته العربية، البدوية، تفضح وتشي دونما خطأ، ربما من تلك البساطة التي تستطيع، خلال دقائق، ان تبني جسراً مع الآخرين، الامر الذي يعجز عنه الكثيرون. وربما من تلك الصراحة، الاقرب إلى الاقتحام، والتي لا تخلو من عفوية، حين يسأل وحين يجيب.

اكتسب الباهي من الصحراء صفات تتجاوز الملامح وتتجاوز المظاهر، ويمكن القول، دونما خطأ، انه اكتسب روح الصحراء وجوهرها. الامر الذي جعله بنظر البعض فوضوياً، او عدمياً، وبنظر آخرين: انساناً غير قابل للتحضر، وقد حددوا المواصفات الحضارية، والتي لا تتجاوز المظاهر والشكل السائد المتعارف عليه تحديداً، او بكلمات ادق: العرف البرجوازي المليء بالعقد والشكليات، والذي يحاول ان يثبت وجوده والدفاع عن استمراره من خلال التشبث بهذه المظاهر.

ولان الصحراء، كجوهر وبيئة، تركت تأثيراً كبيراً في تكوينه، فكراً وسلوكاً، ولان الصحراء معه أينما ذهب، فقد أمضى شطراً كبيراً من وقته، وهو يتأملها، يعاود قراءتها. صحيح انه كان يفعل ذلك عن بعُد، لكن تلك المسافة كانت ضرورية لوضوح الرؤية، ولكي يمزج الخاص بالعام، من اجل الوصول إلى قراءة اكثر دقة وتحديداً.

لم يكن يملٌ من الحديث عن الصحراء. يبدأ من العام ليصل إلى الخاص، لكن لا يسرف كثيراً حول هذا الخاص، انتظاراً للوقت المناسب من اجل تدوينه كله، وبطريقة فنية. ويبدأ في احيان اخرى، من الخاص لينتهي في خضم ذلك العام المدهش والمخيف، حين تتبدى الصحراء بكل جبروتها وقسوتها وعبقريتها أيضاً.

ولان الصحراء حاضرة دوماً، وموضع تأمل ومراجعة، فان الباهي يذهب إلى الحد الاقصى في محاولة استخلاص الافكار والصفات المتعلقة بهذه البيئة، ومدى انعكاس تلك الخصائص على النبات

والانسان والحيوان، وتالياً كيف تعيد صياغة التكوين مرة بعد اخرى من اجل البقاء والاستمرار.

واذا كانت احدى صفاته التواضع، فلم يدَّع انه يمتلك رؤية كاملة او نظرية في قراءة الصحراء: بشراً وحيواناً ونباتاً، فان احدى قراءاته للنبات بوجه خاص تشير إلى الذي استخلصه، ولعلّه في هذه القراءة يؤكد على الصفات، وليس على المزايا، التي تم اهمالها، او على الاقل عدم ايلائها ما تستحق من العناية والاهتمام، كي تكون سلاحاً لحماية النفس والتكيف والبقاء.

وربما من المفيد هنا تأمل بعض ما كتبه عن النباتات الصحراوية:

«قبل ان نشرع في وصف استراتيجية النباتات في الصحراء، لا بدَّ من التنبه والتنبيه إلى الوحدة العميقة للصحراء العربية، وصحراء الشمال الافريقي جزء منها، بل هو اكبر أجزائها، كما لا بدَّ من التنبيه إلى انه داخل هذه الوحدة الجيولوجية المناخية الممتدة من الرياض حتى نواكشوط، تقوم خصوصيات كبرى مميزة للمغرب العربي عن المشرق، توجد داخلها خصوصيات فرعية للصحاري المغاربية نفسها تكتسب كل واحدة منها ملامح وقسمات بارزة او مكتومة، بهذه الدرجة او تلك.»[1]

انه يتحدث هنا عن الصحراء، وليس للامر علاقة بالسياسة! ثم يتابع:

«التخلص من الاوراق (اوراق النباتات) حيلة ماكرة، ذكية، مألوفة لدى النباتات الصحراوية، يتم اللجوء اليها ضمن استراتيجية مواجهة الجفاف وعواقبه» ويضيف بعد قليل: «ان سياسة تشطيب الاوراق والتخلص منها والاستغناء عنها تماماً هي منهج يكاد يكون عالمياً تتبعه

---

(1) نزوى عدد «4» 1996.

النباتات في مناطق مختلفة، متناقضة المناخ. انها استراتيجية مطبقة في القطاعات المهددة بفصول جفاف طويلة. وهي مطبقة في المناطق ما دون الصحراوية، وكذلك في المناطق الواقعة بين المداريات، وبالطبع، بل بالضرورة الحتمية، داخل الصحراء نفسها».

لا يزال الباهي يتكلم عن النبات، وليس في السياسة، ويتابع مقارناً بين النباتات الصحراوية والنباتات الباريسية: «في بداية الخريف الباريسي، الذي تصادف وانشغالنا بهذه النصوص، لاحظنا ان اطراف اوراق الاشجار بدأت تذبل وتتلوى، مكتسبة لوناً حنائياً يذكرنا باقتراب سقوطها وينبهنا إلى المآل الشتوي الذي ينتظرنا. اكثر من ذلك فهذه الارهاصات تخبرنا بلغة طبيعية واضحة ان الاشجار الباريسية تتجرد من اوراقها بمناسبة حلول فصل الشتاء تماماً مثلما تفعل (النباتات) الصحراوية عند مجيء القيظ والجدب.

«الواقع ان الشتاء البارد هو، في وجه من وجوهه، ضرب من فعل الجفاف بالنسبة للشجرة الباريسية، والسر في ذلك ان التربة تتجمد، فلا تعود الجذور قادرة على سحب الماء الضروري لعملية التنفس، او لتشغيل مختبر التصوير الضوئي التركيبي».

«اننا هنا امام ظاهرة طبيعية مدهشة نستطيع بلا تردد ان نسميها الاستراتيجية العالمية المشتركة او الموحدة للاشجار، للاشجار الباريسية والاشجار الصحراوية».

لا يزال الحديث يدور حول النباتات، حول الاشجار تحديداً، ويتابع قائلا[2]: «كل هذه الاشجار المختلفة الطبائع والمواطن والبنى، اي تلك التي توجد في قلب اوروبا الغربية، الرطبة الباردة والمطيرة، وتلك التي تقيم في وسط القارة الافريقية، الجافة والقاحلة، تتصرف

(2) المصدر السابق نفسه.

باسلوب واحد، مستبقة الصعوبات المتأتية من ظاهرتين مناخيتين هما ظاهرتا الرطوبة المتجمدة والجفاف المنشف، المتناقضتين.» «والاشجار تفعل ذلك تأهباً للصمود واستعداداً للمقاومة» «لو ان الاشجار الباريسية والاشجار الصحراوية لم تبتدع تلك الحيلة الماكرة التي تقودها إلى التضحية باوراقها، وتدفعها إلى توقيف التنفس، ثم تجبرها على الاكتفاء بالكفاف، اي العيش في حدود طاقة المخزون المائي، واحتياطات الرطوبة المتوافرة، او المحفوظة في جذوعها وسيقانها واغصانها، لو لم تفعل ذلك لحكمت عليها الطبيعة بفناء محقق».

ليست هذه الاستراتيجية الوحيدة التي يتبعها النبات في مواجهة التحديات، اذ تتعدد هذه الاستراتيجيات وتتنوع حسب البيئة، والفترة الزمنية، وحسب الاخطار التي تهددها، يكتب الباهي: «ان بعض البذور التي تنتمي إلى نبتة واحدة او لنوع واحد قد لا تختمر دائماً دفعة واحدة بعد سقوط الامطار مباشرة» «واعتبر العلماء ان التنوع في ردود افعال البذور ازاء الطبيعة العشوائية للامطار الصحراوية هو ضرب من التكيف مع البيئة يسمح للبذور بأن "ترتب" تخمرها وفقاً لتتابع الامطار، وبالتالي ان توزع الحظوظ والمخاطر تجنباً لفناء النوع».

ويورد الباهي المعلومات المتعلقة بتجارب اجراها علماء النبات على 50 نوعاً من البذور الصحراوية و72 نوعاً من البذور الاسكندنافية المماثلة، فماذا كانت النتيجة؟

«خلال الاربع وعشرين ساعة الاولى، اي اكتمال دورة الارض، ظهرت سبعة اختمارات في القسم العربي الافريقي من البذور، دون ان تختمر بذرة اوروبية واحدة. وفي غضون ثماني واربعين ساعة ارتفع عدد الإختمارات في القسم الاول إلى رقم ثلاثين، وبقي القسم الثاني في مستوى الصفر. أما في اليوم الثالث، وبينما بلغ عدد الصحراويات المختمرات خمسة واربعين تجرأت بذور اسكندنافية اربع لا غير على

اقتحام المجهول والدخول في مغامرة الحياة بتواضع شديد». ويعلق عالم النبات الفرنسي على هذه التجارب بان يقول ساخراً: «بذورنا ليست في عجلة من امرها، فهي تدرك ان الرطوبة ستدوم». أما البذور الصحراوية، كما يقول الباهي، فربما خمنت او تصورت ان الرطوبة لن تستمر.

وتتابع البيئة الصحراوية التعبير عن عبقريتها، من اجل البقاء، بطريقة فذة، وهنا لا يعتمد الباهي على ما يقرأه في كتب النبات فقط، اذ يضيف ويتذكر ما شاهده في طفولته«. . . وهناك نباتات صحراوية تتفتح صماماتها ومصاريعها اذا ما مسها الماء، فتلقي بذورها إلى الارض في صمت، خلال اللحظات المناسبة. أيضاً توجد نباتات صحراوية تنتهي رؤوس بذورها بثلاث مسكات ذات شكل خيطي رفيع، وهي تملك في قمّتها تكويناً منقارياً صغيراً يتيح لها امكانية التغلغل داخل التربة، بحركة لولبية حلزونية، والحال انها تدور حول نفسها ثم تنغرس في الارض، وبعض هذه البذور يسافر، قاطعاً مسافات طويلة في مواكب السواقي، قبل ان يستوطن أفراده، مكاناً معيناً.

«ان منظرها غاية الجمال والرشاقة شاهدناه في طفولتنا».

ليس ذلك فقط، ان النباتات الصحراوية تتمتع بحد عالٍ من الذكاء الممزوج بالمكر، اذ تتحدد ردود افعالها تبعاً لِكَمّ كبير من العناصر، فبينما يستجيب بعضها لملامسة الماء ويتفاعل بسرعة، فان بعضها الآخر شديد الحذر، ويعتمد استراتيجية «الرائد الذي لا يكذب اهله»، اذ يدفع الطلائع لان تمتحن الحالة الجديدة التي يواجهها، وعلى ضوء النتائج، الايجابية او السلبية، تتحدد الخطوات اللاحقة. يكتب الباهي: «تقسم بعض الانواع النباتية الصحراوية افرادها إلى قطع متعددة، داخل كل قطعة منها اربع او خمس بذور، فحين تدفن واحدة من هذه القطع تحت سطح التربة للتخمر، لا تنبت منها الا واحدة،

هي البذرة العليا في الترتيب. واذا اعيد تجفيف تلك القطعة ثم اعيد زرعها من جديد في تربة رطبة، فإن البذرة الثانية التي تكون قد احتلت المكانة الاولى، هي التي تتخمر. بينما تبقى الاخرى في حالة سبات. الم تصل هذه البذور إلى درجة واحدة من النضج؟ ام ان البذرة الاولى بثت مادة كيماوية مخدرة بثت خلالها للاخرى رسالة!»

واذا كانت الصحراء مثيرة لصور كثيرة، لا يخلو بعضها من جمال، فانه لا يعرف قسوتها وجبروتها الا من عاش فيها، من عرفها. حتى النبات الصحراوي يدرك بعمق هذه القسوة ويَحْذَرُ هذا الجبروت، ولذلك لا يتوقف عن تحصين نفسه من اجل الاستمرار والبقاء.

فالامطار الشحيحة بصورة عامة، والتي لا تتجاوز بضع مليمترات في العام، وقد يصادف ان تمر سنوات دون ان تهطل قطرة مطر واحدة، مما يضطر انواعاً من النباتات للانتظار عشر سنوات سقوط المطر، وهذا يجبرها على اختراع نظام تخديري يمنعها من الاختمار، وبالتالي التفتح، تحت تأثير الانداء او الانواء الطفيفة مما يجعلها تدخل في سبات طويل، او إضراب سباتي كما يسميه الباهي، انتظاراً لايام المطر.

وخلال فترة السبات الطويل تلجأ هذه الانواع من النباتات الصحراوية إلى الهروب من الزمن، انتظاراً لظروف افضل تمكنها من استئناف حياتها.

وفي هذه الرحلة الطويلة الشاقة تلجأ النباتات الصحراوية إلى «اختيارين بسيطين تجدهما اساس كل اقتصاد للحياة: فاما الحد من الخسائر، او زيادة الاحتياطات المائية، او القيام بالعملين معاً. واكثر الوسائل بساطة ونجاة لتخفيض الخسارات المترتبة على تبخر الماء بطريق التنفس هو تقليص سطح الأوراق المتنفسة».

حتى الأشواك الصلبة القوية التي تحيط بالنباتات الصحراوية، فإنها

بالإضافة إلى دورها في حماية النوع، ولئلا تكون لقمة سائغة للحيوانات الصحراوية الجائعة أيضاً، فإنها طريقة في إقتصاد الرطوبة ومنع التبخر.

ويحدث في الكثير من الاحيان ان يقتصر نشاط النباتات الصحراوية على الليل، اي خلال الساعات التي يخف خلالها التبخر، كما يحدث في شجر الصبار وازهاره، اذ لا تتفتح الا في الليل وتذبل في اليوم التالي.

ويشير الباهي، اعتماداً على رأي علماء النبات، إلى «ان الاشجار الشوكية تنتج وسائل دفاعية اضافية، من ضمنها افرازات كحولية مخدرة، تنتجها بعض افراد صنف معروف من الصباريات، ومواد مسكرة ولبيّات مرة مهيجة ومثيرة» «او تلك الاشواك الحية الطائرة التي تخرجها عشبيات من طراز العليق» «وقد رأى بعض الباحثين في أسرار النبات ان وجود اعضاء حادة ربما بمثابة شباك وفخاخ منصوبة لاصطياد قطرات الندى الليلي».

واذا كان الباهي قد دوّن جانباً من معارفه وقراءاته عن نباتات الصحراء، فان رحلاته في عالم الحيوان لا تقل غرابة، ولا يُدرى ان كان قد دونها ام لا! أما عن حياة بشر الصحراء وعلاقاتهم، احلامهم واشواقهم، ما كانوا يحبونه ويطمحون اليه، وما كان يخيفهم ويجعلهم يتحسبون، خاصة حين ينقطع المطر، او تبدأ تلك الغزوات العمياء، فان ذلك كان يحشده ويرتبه ليكون قوله الادبي ـ الروائي الكبير، ولعل في تلك الدراسة عن النبات بعض الاشارات عن «وردة الرمال» او «وردة الرياح» اذ كان يريدها جزءاً من «ذاكرة الصحراء» الرواية التي ظل يهجس بها سنوات طويلة متواصلة، وكان يريد ان يقول من خلالها انه ليس فقط ذلك الصحفي الذي يلاحق الاحداث، وليس ذلك السياسي المملوء بحزن الامة، ويحاول ويبحث عن طريق للنجاة، اذ بالاضافة إلى هذه الصفات والهموم التي تشغله، كان يريد ان يبرز

وجهه الادبي، الذي يتجاوز ذلك الالقاء الاخاذ للشعر الجاهلي، وتلك القصص التي يرويها عن ابي حيان والجاحظ، لكي يقول، روائياً، ما كان يعتمل في نفسه، ما يجعله يحن ويجن، ويبكي في بعض الليالي.

[13]

. . . والصحراء ليست النبات او الحيوان فقط، انها، وبالدرجة الاولى، البشر. فأولئك الذين ولدوا في الصحراء، او عند تخومها، يكتسبون صفات تصبح ملازمة لهم اينما حلوا، بغض النظر عن التقييم الكامل لهذه الصفات.

الثقافة الشفوية، الحذر، البساطة في الاكل والمظهر، الصراحة، الصبر، وقبل كل شيء الوفاء. هذه من جملة ما تعلمه الصحراء لأبنائها.

قال الاصمعي عن لهان بن تغلب: «مررت بامرأة بأعلى الارض، وبين يديها ابن لها يريد سفراً وهي توصيه فقالت: اجلس امنحك وصيتي وبالله توفيقك، وقليل لجدائها عليك انفع من كثير عقلك: اياك والنمائم فانها تزرع الضغائن، ولا تجعل نفسك غرضاً للرماة، فان الهدف اذا رُمي لم يلبث ان ينثلم، ومثّل لنفسك مثالاً فما استحسنته من غيرك فاعمل به، وما كرهته منه فدعه واجتنبه، ومن كانت مودته بشره كان كالريح في تصرفها.

ثم نظرت فقالت: كأنك يا عراقي اعجبت لكلام اهل البدو؟ ثم قالت لابنها: اذا هززت فهز كريماً، فان الكريم يهتز لهزتك. واياك واللئيم فانه صخرة لا ينفجر ماؤها، واياك والغدر فانه اقبح ما تعومل به، وعليك بالوفاء ففيه النماء. وكن بمالك جواداً، وبدينك شحيحاً،

ومن أعطى السخاء والحلم فقد استحاد الحُلّة: ريطتها(*) وسربالها(**)! انهض على اسم الله»(1)

واذا كان الباهي قد سافر دون ان يسمع هذه الوصية بالذات، وربما لم يسمع اية وصية غيرها، الا ان الكثير مما جاء فيها كان سلوكاً غريزياً بالنسبة له. فالنمائم التي يعيش عليها الكثيرون، وقد اصبحت خبزاً يومياً في هذا العصر، كانت مرفوضة وتعتبر نقيصة بالنسبة له، بل ويحارب من اجل طردها عن «المائدة»، وحين يصر عليها النمامون كان الباهي يتحول إلى «محام للشيطان»، كما ظل يردد من اجل الدفاع عن «المسلوق» المستغاب.

يعرف الكثيرون هذه الصفة لديه، ولذلك كانوا يكتمون عنه «اسرارهم» او يموهونها.

واذا كان الاختلاف السياسي قد خلق عداوات تصل بعض الاحيان إلى حد القطيعة، فان هذا الرجل كان من القلائل الذين ميزوا وبوضوح، بين الاختلاف والعداء. بل اكثر من ذلك ظل يحتفظ، مع المختلفين، بعلاقات انسانية، وكان قادراً على ان يميز موقعه الفكري ـ السياسي دون ان ينجر إلى المهاترة ثم القطيعة.

حتى في اوج الصراع السياسي، في المشرق او المغرب، كان بعيد النظر، يتصف بسلوك عقلاني، دائم البحث عن النقاط المشتركة، او التي تجمع، الامر الذي كان يعرضه، بعض الاحيان، إلى سوء الفهم، او اطلاق صفات سلبية على موقفه.

النميمة، اذن، كانت من الصفات المكروهة، والتي لا يلجأ اليها الا الضعفاء، مقابل ذلك كان هناك الوفاء المنقطع النظير.

(*) الريط: الملاءة اذا كانت قطعة واحدة.

(**) السربال: كل ما يلبس.

(1) الجاحظ، البيان والتبيين، الجزء الرابع، ص 72 ـ 73

لا اظن أن احداً عرف الباهي في باريس الا واكتشف ان اولى صفاته الوفاء. كان يتفقد الكثيرين وكأنهم اسرته. وكان موجوداً عند الحاجة او الضرورة. فاذا لم يستطع ان يتواصل مع الآخرين بشكل مباشر فلا اقل من السؤال عن طريق الهاتف. كان هاتفه يدوي في الليل والنهار، ومع الصوت ذلك الصهيل الذي يميز ضحكته، بحيث ينقل إلى الآخرين عدوى الفرح! كان في اغلب نداءاته الهاتفية لا يريد سوى الاطمئنان ان الآخرين، مثله، لا يزالون يُمارسون فضيحة الحياة، كما يحلو له ان يجيب حين يُسأل.

لقد تراجع الوفاء في هذا العصر، خاصة في منطقتنا المضطربة إلى درجة ان الذي يهزم، حتى في مباراة رياضية، لا يجد من يسأل عنه، من يقف إلى جانبه، في الوقت الذي يتهالك الكثيرون على المنتصرين، وهؤلاء المنتصرون لا يفطنون ولا يأبهون حتى لمعرفة مؤيديهم!

هل اقول ان الباهي كان يهوى المهزومين، ويؤثر الوقوف إلى جانبهم، خاصة في الظرف الصعب، ويعلن ذلك، رغم ما يجره هذا الموقف من نتائج؟

فحين ينتصر الذين يكون معهم، وبدلاً من الاحتفال مع المنتصرين، يبحث عن الذين استُبْعدوا عن النصر. يبحث عن المنسيين كي يشاركهم الحزن على الاحلام المغتالة، على الفرص الضائعة. يبحث عن هؤلاء وينسى احتفالات النصر، وفي غمرة البحث والحزن، وأيضاً الغياب، يشعر ان اشياء كثيرة ضاعت، وكان يجب الا تضيع، الامر الذي يستوجب معركة جديدة.

أما المنتصرون فانهم ينسون في غمرة الانتصار اخطاءهم، فدوي النصر يطغى على الانين الآتي من بعيد، لكن عيني الباهي يقظتان، وأُذُنَيْه تلتقطان اكثر الاشارات خفاء. هكذا تبدأ سلسلة من المتاعب والتساؤلات، ولا تنتهي هذه السلسلة الا اذا غادر مكانه، وهنا يبدأ

البحث عن مكان آخر، مكان جديد.

ورغم أن العمل السياسي هو عمل الباهي، الا ان الاحداث التي رافقها، الاشخاص الذين تعرف عليهم ثم اختبرهم، والفرق بين الشعار والنتائج، بين ما يقال وما يتم الوصول اليه او ما اتفق عليه، امور تثير التساؤل ثم الخوف، وهذا ما جعله ينظر بكثير من الحذر إلى كل ما يجري حوله، ويلجأ إلى السؤال والمقارنة، في محاولة لاكتشاف مواقع قدميه.

هل تم هذا بدافع البداوة؟ بدافع التعصب؟ قد لا يكون الحال كذلك، اذ لا علاقة للدخالة البدوية بالامر، ولكنه الشعور بان الحقيقة لا تعني النصر، وليست بالضرورة نتيجة الخطأ او سوء النية. ففي ظل الالتباس الذي يعتبر ابرز سمات المرحلة العربية الراهنة، وبسبب التداخل بين العوامل الخارجية والداخلية، وأيضاً التنكر والشطارة، وربما الغدر، واسباب اخرى كثيرة ومتداخلة، فقد سهّل ذلك انتصار طرف وهزيمة آخر، والنصر والهزيمة في مثل هذه المعارك امور نسبية، وأيضاً مؤقتة، وقد تكون نتيجة الصدفة. لذلك على الانسان ان يمتلك عنق جمل، كما يقول الباهي، قبل الاعلان: ان الحقيقة في هذا الجانب او ذاك.

ان المعارك السياسية، المتعلقة بتلك المرحلة، لا علاقة لها بالحقيقة او بصواب المواقف ولا بالنوايا الحسنة. ان لها دوافع مختلفة، وتهدف إلى امور مغايرة. لذلك فان الذين يسقطون في مثل هذه المعارك هم عاثرو الحظ، وربما الاكثر صدقاً ونزاهة، ولا مانع من القول ان بساطتهم لا تخلو من بلاهة، او ان حساب حقولهم يختلف كثيراً عما تريد «السرايا»!

اعتماداً على هذا التحليل كان الباهي يجد نفسه في جانب المهزومين او المرشحين للهزيمة. حتى في الوقت الذي انحشر في زمرة المنتصرين، وهي حالات قليلة ومؤقتة، لم يستطع ان يستمر

طويلاً ضمن هذه الزمرة، او في تلك الحالة.

الصديق هو الصديق، سواء أكان منتصراً او مهزوماً، وهذه الصداقة اقرب إلى منطق الهم المشترك والتحالف على السراء والضراء، لذلك يصعب عليه ان يتخلى عن صداقاته واصدقائه، ولا يعتبر الحلف مجرد جني الفوائد وعدم تحمل الاعباء او الخسائر.

لقد عرَّضته هذه الخصلة التي لم يتخل عنها ابداً إلى الفهم الخاطىء، وبعض الاحيان إلى الشك، كما الحقت به اساءات كثيرة، لان المنطق الرسمي العربي يعتبر من ليس معه، لا بد ان يكون ضده بالضرورة، ويتأكد ذلك، ويصبح قرينة ثابتة، وبالتالي حكماً غير قابل لاي نوع من انواع المراجعة او النقض، حين تكون هناك علاقة «مرحبا» مع الطرف الآخر، الخصم، والذي كان إلى الامس القريب جزءاً من السلطة او حليفاً من الحلفاء!

لقد اخذت الانظمة العربية، في العقود الماضية، وهي لا تزال كذلك إلى الآن، بعض صفات البداوة، لا كلها، وربما اخذت الجزء السيِّىء منها، مما جعلها تبدو، في المحصلة الاخيرة، بدائية اكثر مما هي بدوية، الامر الذي دفعها إلى مستنقعات الدم والحقد، وبالتالي دفعها إلى الجنوح نحو قيم هجينة تقع عند التخوم المشتركة لمنطق التسلط والاستبداد والفردية، في الوقت الذي تعتبر صيغة البداوة، حتى في اعماق الصحراء، مثلاً للمشاركة والمساواة، على الاقل في مواجهة الخصوم المشتركين.

بكلمات اخرى: اصبح الباهي يتقدم خطوة في العمل السياسي ويتأخر خطوتين. لم يتعب من العمل السياسي، ولكنه تعب من نمط معين، وهذا ما سيجعله يبحث فترة بعد اخرى عن مكان جديد، ليس بهدف الانتقال، وانما في محاولة للاجابة على الاسئلة المقلقة، والبحث عن ارض اكثر صلابة، اعتماداً على العقل والضمير، والتفكير بالآخرين أيضاً!

[14]

كان عقد الخمسينات، والجزء الاول من عقد الستينات، سريعين مضطربين، وكان من شأن هذه السرعة، وهذا الاضطراب، ان غيَّرا المواقع والافكار ونمط الحياة بالنسبة للكثيرين، وهذا ما سيجعل الباهي يغادر سني الشباب الاولى مبكراً، ويختار طريقاً جديداً وصعباً، اذ اختار ان يلتحق بجيش التحرير.

وفي لهب المعارك والانتقال لا يكبر الانسان وفق تقاويم الايام والسنين، وانما حسب التجارب التي يعيشها، الاخطار التي يتعرض لها، وأيضاً حسب الاماكن التي يقدر له ان يستوطن فيها، والبشر الذين يلتقيهم او يتعامل معهم. وهكذا قدر لهذا الشاب الذي غادر موريتانيا في وقت مبكر، ان يبدأ رحلة دليلها الشمس، فقد اعتبر ان السير نحو مشرق الشمس سوف يقوده إلى اكتشاف العالم، والتعرف على مخلوقات الكون، وأيضاً الوصول إلى اماكن الحنين التي طالما راودته في ليالي الصحراء.

في صفوف جيش التحرير اتيح له التعرف على المغرب جنوباً ووسطاً وشمالاً، تعرف على الاماكن والبشر عن قرب، وسوف تكون هذه المعرفة زاداً لفترة طويلة، كما ستنتقل معه من مكان إلى آخر دون مشقة، تماماً كالتمر الذي يحمله البدو معهم في رحلاتهم التي

تستغرق، في بعض الاحيان، سنوات.

من خلال هذه المعرفة ستتكون ذخيرة الباهي الفكرية والسياسية في المرحلة الاولى، وسوف تتعاظم وتزداد ما دام يتعرف على اشخاص جدد واماكن جديدة، كما سيتأكد ذلك اكثر وهو ينتقل من مدينة إلى اخرى، من قارة إلى اخرى، وسوف تكون المادة الجديدة مصدراً لكتاباته الصحفية والادبية، كما ستكون الدرع الذي يسيّجه في ليالي المنافي الطويلة.

اذ بعد ان انتهت المعارك العسكرية المباشرة في المغرب، قرر الباهي ان يستبدل سلاحاً بآخر، ان يعتمد القلم بدل البندقية. وحين تقدم لمسابقة من اجل اختيار محررين لجريدة العلم، كان من اوائل الناجحين، وهكذا سيكون القلم سلاحاً وحيداً منذ عام 1956 وحتى اللحظة الأخيرة من العمر.

ان الصحافة بمقدار ما هي جامعة تعلم الكثيرين، فان لها قوانين واعباء تحدّد وتستنزف، كما تضفي على كل داخل طريقة في العيش والتعامل والتفكير، بحيث يصبح الخروج منها صعباً، ان لم يكن مستحيلاً.

ومثلما هناك اناس اذا ارتبطوا بالجامعة لا يستطيعون مغادرتها، ولا يتصورون انفسهم قادرين على العيش خارجها، فهناك غيرهم لا يطيقون البقاء داخل جدرانها اكثر من مدة الدراسة، لينطلقوا بعدها إلى الفضاء الواسع بحثاً عن صيغة لحياتهم او معنى لهذه الحياة.

اختار الباهي مكاناً وسطاً، اذ بقي عند البوابة الكبيرة لجامعة الصحافة. فهو لا يقوى على مغادرتها، ولا يريد ان يُسجن وراء اسوارها، فقد عرف انه اذا دخل يصعب عليه الخروج. أما اذا غادرها قبل الاوان فربما لا تتاح له الفرصة لانجاز ما يمني نفسه به. وهكذا ظل في موقع خطر، ولعل هذا الموقع بالذات هو الذي اضفى على كتاباته نكهة مميزة وخصوصية يكاد يتفرَّد بها.

ان كتابته الصحفية مزيج من التحليل والإخبار المستندين إلى الواقعة، ولذلك ظلت مفتوحة النوافذ على الادب والخيال، ولا تخلو من الاستطراد الممتع، يضاف إلى ذلك القوام الواضح والمشخص، بحيث تتجسد الواقعة بطريقة حية قادرة على الاقناع، اذ يشعر من يقرأ ان هناك انساناً يكتب بكل اعصابه، وليست مجرد كلمات محفوظة او تمليها البراعة او المهنة.

كتابة من هذا النوع هي حصيلة لمعرفة دقيقة واثقة، هدفها ان تنتقل إلى اكبر عددٍ من الناس، وهذا العدد متنوع الثقافة والمستوى والاهتمام، اضافة إلى تعدد المواقف السياسية والفكرية، مما يتطلب طريقة في الخطاب تتسم بالحياد وهي تنقل المعلومة الخبرية، في نفس الوقت تملك الحجة المقنعة مما يجعلها مقبولة اولاً، ثم مؤثرة بعد ذلك، وهذا يستدعي اعتماد كم من الوسائل من اجل الوصول إلى الهدف، دون قسر، دون شعور المتلقي، القارىء، انه يتعرَّض إلى غسيل دماغ، او فرض «حقائق» عليه، وانما هي رحلة مشتركة يقوم بها اثنان: الكاتب والقارىء معاً، من اجل اكتشاف الحقيقة، وتالياً الوصول إلى النتائج المطلوبة.

هذه الخصوصية التي تميِّز اسلوبه ليست من السهولة، او يمكن الوصول اليها، لو لم يبق الباهي عند بوابة جامعة الصحافة، فقد كانت احدى عينيه على الداخل، والاخرى تطل إلى البعيد، في محاولة لاكتشاف ما وراء المعلومة، او تحويلها إلى شيء يتجاوزها.

واذا كان الوقوف طويلاً عند البوابات التاريخية يولِّد القلق، فان هذا القلق قدر ما يحمل من تساؤل وحيرة، يدفع إلى البحث، وإلى التجاوز، لذا يصبح الشعور قوياً بأن الكتابة الصحفية لا تكفي، وبالتالي لا بد من البحث عن كتابات من نوع آخر، او التعبير عما يجيش في العقل والقلب بإسلوب لا يهدف إلى الاقناع قدر ما يهدف

إلى التساؤل، ولعل في هذه النقطة بالذات تكمن قوة الباهي ويكمن ضعفه في آن واحد.

كان مسكوناً بالادب، شعراً ونثراً، وكان على قناعة ان الادب افضل وسائل التعبير، وعن طريقه يمكن ان يقول افضل ما لديه، نظراً لما فُطر عليه، ثم لاهتماماته ومتابعاته، لكنَّ مجموعة من الاسباب جعلته يرجىء اعتماد هذا الاسلوب.

ففي غمرة الاحداث السياسية التي ظلت تتابع كالامطار الاستوائية خلال فترة الخمسينات والستينات، ومتابعة تلك الاحداث، وضرورة تغطيتها، والاندماج بلعبة الامل والتحدي، جعلته يعتمد الاسلوب الصحفي، وان ابقى لكتابته الصحفية ظلالاً ادبية.

والعامل الآخر الذي دفعه لارجاء الكتابة طبيعة الحياة التي كان يعيشها، ومتطلباتها اليومية والمادية. فالتفرغ للادب، او اعتباره الهم الاول، بالاضافة إلى وصفه بالترف، وتصنيفه كذلك، بنظر الكثيرين، خاصة في بلادنا، وخلال ذينك العقدين، لا يمكن ان يوفر الحد الادنى من القدرة على الاستمرار ومواجهة اعباء الحياة، مما يستدعي البحث عن مصدر للرزق، وجعل الادب مجرد هواية تُمارس بشكل سري، وفي اوقات الفراغ تحديداً وفقط!

والعامل الثالث الذي جعل الباهي يدفع الكتابة الادبية إلى خلفية المشهد، كما يقال، ذلك الوهم الخادع ان الحياة لا تزال ممتدة، طويلة، وهي مقبلة وليست مدبرة، وبالتالي ستمكنه الايام من قول كل ما يريد.

كان يحشد نفسه، يُهيِّىء افكاره وموضوعاته، يصقل ادواته، انتظاراً للوقت الذي يبدأ رحلته.

كان عبقرياً في تأجيل الساعة المناسبة لهذا الانطلاق، اذ كان على يقين صوفي ان لديه من الوقت ما سيكفي لانجاز الكثير من المشاريع

«الجاهزة» في البال، واخرى قد تأتي، لذلك لم يكن في عجلة من أمره!

ليس ذلك فقط، كان يخط على صفحة الماء، على اجنحة الريح، الكثير من المشاريع. وكان يقدّر لكل مشروع الزمن الذي يكفيه، ويضع اولويات تناسب اهمية المواضيع وتواليها. وفي اطار هذا الاحتشاد الجميل كان يجمع لكل موضوع مصادره ومراجعه، ويصرف من الوقت ما يقتضي من اجل انجازه على احسن وجه!

العدوّان اللدودان اللذان كانا يتربصان بالباهي، دون ان يحس: مفهوم الزمن، وغدر الايام.

فالزمن، بالنسبة له، ليس هذا التوالي للأيام، والذي لا يعرف التوقف او الانقطاع، بحيث اذا بدأ من نقطة لا بدَّ ان ينتهي عند نقطة اخرى تقابلها في هذا المسار، وما يعنيه ذلك من تآكل وتسرب... وصولاً إلى الغياب.

كان احساسه بالزمن ملتبساً، اذ بمقدار ما يصرُّ على التمتع باللحظة التي يعيشها، ويفعل ذلك، بعض الاحيان، بطريقة احتفالية، ليس باعتبار ان هذه اللحظة تتسرب وتنتهي بمجرد وقوعها، وتصبح في التو لحظة ماضية، وانما بالقدرة على تكرارها، والاحتفال بها كل مرة. اي ان الزمن تكرار دائري، قابل للتجدد باستمرار، وبالتالي غير قابل للفناء او الانتهاء، ولم يتصور لحظة واحدة ان الزمن تلاشٍ دائم، تسرب دون توقف، ومحكوم منذ البداية بالنهاية.

مثل هذه النظرة إلى الزمن تخرجه من دائرة التعامل، اي ضرورة حصاره، ومحاولة السيطرة عليه، وعدم الاقتصار على مفهوم الاحساس المباشر بالحياة، اي عدم الاكتفاء بما توفره اللحظة المعاشة، وما تولده من متعة ومشاعر وافكار وعلاقات واكتشافات واضافات. فالزمن اكثر مكراً وتنوعاً وكثافة، ويؤدي بالضرورة إلى الضفة الاخرى.

نظرته تلك إلى الزمن قادته إلى اعتبار الآني اكثر اهمية او حفاوة واحتفالاً من الآتي، بحيث يمكن تأجيل كل ما عدا ذلك، او ترحيله إلى زمنٍ لاحق، دون اقل تقدير ان هكذا زمناً قد لا يأتي.

هذا المفهوم للزمن يتصل بمفهوم اعمق لمعنى الحياة، حتى لو لم يوضع ضمن صيغة، او سياق واضح، وبعض الاحيان دون ادراك واعٍ. لان الزمن، في هذه الحالة، ليس زمناً قادماً، او حتى ممكناً، وانّما هو الاتصال بالحياة، والاشتباك فيها ومعها، الآن، وليس في اي وقت آخر.

في لحظات الزهو يكون هذا المفهوم مقنعاً للذات، وكافياً أيضاً، لانه يخلق الرضا والاشباع، لكن في لحظة اخرى، او في لحظات مختلفة، يصبح هذا المفهوم عبثاً، وسبباً لتأنيب الضمير، وربما الشعور بالخواء، مما يدفع إلى مواقف معاكسة.

أما العدو الثاني. غدر الايام، فلا حاجة للحديث عنه، اذ بمقدار ما هو بعيد فانه شديد القرب، ملاصق للروح، وهذا ما حصل تماماً... وفي الزمن الخطأ، وتحديداً لهذا الانسان الذي كان يعد بالكثير.

[15]

يخطىء من يفترض ان «المكان» تكوين جامد او محايد. صحيح انه ثابت، لكنه مليء بالحياة ويضجُّ بالحركة، كما يترك تأثيراً كبيراً ومتزايداً على الانسان وعلى كل ما حوله من كائنات. حتى حيوانات ونباتات مكان ما تكتسب صفات ذلك المكان. فرائحة التربة، سرعة الريح، مساقط الشمس، ينابيع المياه، وحتى مواعيد نضوج الثمر، بمقدار ما تحدد المكان فانها تكتسب منه صفاتها.

يكفي ان نقيس هذا التأثير حين تغير الكائنات أماكنها، انها تتعرض لحالة من التعب والضياع، وربما التلف. كما انها تقدِّم ثمناً فادحاً نتيجة هذا التغير، وتقدم ثمناً اكبر حين تبدأ رحلة التأقلم مع الامكنة الجديدة، وقد يكون ضمن هذا الثمن الغياب الكامل للفرد، وقد يصل إلى غياب النوع ذاته، بان يصبح وكأنه لم يكن.

والعلاقة مع المكان، او بالمكان، علاقة الفة وتعوُّد. وبمقدار ما تكون الالفة رابطة وعلاقة مع الآخر، فان سطوة المكان لا تقلّ عن ذلك. الحرارة التي تولدها الشمس، الريح التي تهب من هذه الجهة او تلك، الامطار والمياه التي تشكل جسراً بين الانسان وذلك المكان، حتى نظرة القطعان وهي تعود من المراعي، وصوت الديكة وهي تختتم ليلة لتبدأ يوماً جديداً، ثم رائحة الخبز، صوت الحليب وهو

يتدفق في الاواني النحاسية، والحطب الذي يُوقَدُ من اجل قهوة الصباح او المساء، وعشرات التفاصيل الاخرى، انها كلها تشبه الخيوط التي تلتفُّ على الروح لتجعلها في اسر دائم!

علاقة الانسان بالمكان اذن، اي مكان، علاقة تعوُّد، ثم الفة، ثم سطوة يصعب الفكاك منها.

قد تعتبر الصحراء اقسى الاماكن واصعبها، لكنها موطن لعدد غير قليل من البشر، ولانها لهم هذا الموطن، اي مكان الاقامة الدائم، تصبح اليفة، ثم ضرورية، والذين يعيشون في رحابها يصعب عليهم استبدالها، او اعتبار غيرها اجمل منها.

والباهي الذي حمل صحراءه إلى كل الاماكن التي وصل اليها، وظلت تلازمه فيها، وقع، دون ان يدري، ودون ان يخطط، في هوى مكان جديد، وقع في هوى باريس!

لم يقع فجأة او دفعة واحدة، لكنها العادة. والعادة، هذه الآفة التي تتسلل للبشر والحيوانات، وربما إلى النباتات، دون تخطيط او نية مسبقة، تصبح هي القوة العاتية التي تعيد صياغة الاشياء وفقاً لقوانينها، ويصعب على الانسان ان يتحرر من سلطانها ثم من جبروتها بعد ذلك.

أفترضُ ان الباهي وصل إلى باريس كما وصلها آلاف غيره. قد يكون وقت وصوله اليها متميزاً بالمعنى الخاص والعام، اي كان لديه الكثير ليفعله هناك، وكانت باريس تتململ وتحاول ان تكون جديدة ومختلفة عما كانت بنظر نفسها وبنظر الآخرين اليها. والانسان اذا استغرق في مهمة يحبها، وتعني له شيئاً اساسياً، لابد ان يندمج في لعبة قد تشكل حياته ومصيره، وبالتالي يندفع كي يحصِّن نفسه تجاه الاخطار المحتملة.

وهذا الانسان بمقدار ما يندفع في لعبة حماية النفس، وحماية المهمة التي تشغله، يجد ان المكان احد اهم الحصون التي يجب ان يوثَّق بها الصلة، لان المكان غطاؤه، وسيلته في التعامل مع ما حوله.

وهذا الانسان المدفوع لتحصين نفسه، يحاول قدر ما يستطيع، ان يكتشف المحيط. واذا كان حب الاستطلاع بداية الاكتشاف، وتوفير عناصر اضافية للحماية، فانه يتحول شيئاً فشيئاً إلى هدف، بعد ان كان مجرد وسيلة. وفي اطار الاكتشاف تتولد المعرفة، ثم الالفة، وهكذا يصبح هذا المنعطف فخاً ومرجاً معاً، طريقاً لحصار جديد او لفك الحصار القديم.

وحين تصبح الامكنة ذاتها عرضة للتغير، من حيث النظرة اليها او التعامل معها، ويكون الانسان شاهداً على هذا التغير، وربما راغباً فيه ومساهماً بخلقه، فان الامكنة في حركتها الجديدة تفقد حيادها وصمتها لتتحول إلى شريك.

الباهي الذي وصل إلى باريس في تلك المرحلة الرجراجة، حيث اخذت الميادين والشوارع تغير اماكنها، ووظائفها، وتصبح مختلفة، واقل عداء، كان متأكداً انه ساهم في ذلك، وهكذا أصبحت تلك الاماكن، ملاذاً ثم شركاً لعلاقة من نوع جديد.

جمهورية فرنسا، بعد الحرب، الجمهورية الرابعة، تتعثر، تترنح ثم تسقط. ومستعمرات فرنسا بدءاً من فيتنام حتى اعماق القارة السوداء، تضجُّ بالحركة، بالثورة. وتلك الجمهورية البائسة تحاول بشتى الوسائل ابقاء كل شيء على وضعه، في الوقت الذي تتحرك فيه كل الاشياء، وكل الاماكن. وتأتي الجمهورية الخامسة بعد الرابعة، ويبقى الخوف والقلق مسيطرين طوال عقد الخمسينات. لكن وصول ديغول يعني احتمال بداية جديدة، والمغرب العربي، باقطاره المتعددة، اذا كان قد تحمل من فرنسا الكثير، فلا بد الآن من تغيير العلاقة، والثورة هي الطريق. هذه وصفة جُرِّبت ونجحت، وقد حان وقت الجزائر كي تجربها، وكان الباهي احد الرسل الذين بُعثوا إلى فرنسا، إلى باريس، ليساهم، مع آخرين، في ادامة الثورة الجزائرية، في تعزيز مواقعها، في حشد قوى اضافية لها من اجل ان تنتصر.

في احد الشوارع المتفرعة عن ميدان السان ميشيل، غير بعيد عن شارع راسين، كان «مكتب المغرب العربي». في هذا الشارع، وفي هذا المكتب ستبدأ فاتحة التحولات الكبرى، اذ سيقع الباهي في هوى هذه المدينة، وسوف يعصف به ذاك الهوى حتى درجة الادمان.

ففي هذا المكان كان يعمل ويقيم. كان يعمل النهار كله، مع النقابيين، مع المناضلين، مع الصحافة، فاذا جاء الليل واوغل، كان يتسلل لمهمات اضافية، ولاكتشاف المدينة أيضاً. وفي هذه الرحلة المحفوفة بالمخاطر، ورغم الحصار والخوف، فان روح المغامرة، وكثافة البشر حتى ساعة متأخرة من الليل، والمهمات التي كانت تنجز على شكل استلام رسالة او توصيل رسالة، كانت تجعل هذا الغريب يألف المهمات الصعبة، ويألف الخطورة، ويألف الشوارع التي يمر بها غادياً او آتياً. . . وكانت هذه بداية الغرام، لان الخوف بمقدار ما يكون كابحاً في البداية يصبح دافعاً حين يتحول إلى ظفر. وخفقات القلب السريعة حين استلام الرسالة او تسليمها تتحول إلى غبطة بعد ان يتسلل المغامر عائداً، إلى ذلك البناء في Ecole - de - Medecine، ودون ان يشعل الضوء، يصعد إلى الطابق الثالث، ليلقي بجسده على السرير، فيشعر بالراحة المضاعفة، بعد ان هدَّهُ تعب الرحلة وانجاز المهمة، وليستعيد في ذاكرته البدوية الاماكن التي مر بها لئلا ينساها مرة اخرى.

واذا كانت بداية اي حب: المغامرة، والظفر في المغامرة، ولان المغامرة كانت تتكرر كل يوم، تقريباً، وكانت تتعدد وتتنوع حسب ايقاع الثورة في الداخل، وما تتطلبه من مهمات ومساعدات، فان الرجال المقيمين في ذلك البيت كانوا في حالة من الاستنفار الدائم، وكانوا يتحركون اغلب ساعات الليل والنهار، ويؤدون مهمات ستبدو لهم مستحيلة، اقرب إلى عدم التصديق، حين يتذكرونها في وقت لاحق!

اتذكر ذلك الألق الذي يفيض من الجسد كله، من جسد الباهي،

من عينيه، من ابتسامته المفعمة بالغبطة، من حركة الرأس واليدين، وقد اصبحت كلاماً، حين كنا نمرُّ في ذلك الشارع، ونقف عند ذاك البناء، لتعود ذكرى سنوات الكفاح كلها.

من نسيج ذلك الشارع، ومن مهمات ذلك البيت، بدأت تلك العلاقة مع باريس، والتي ستستمرُّ حتى الشهور الأخيرة من هذه الحياة الحافلة المضطربة، وهي بمقدار ما تحكي حياة رجل، فانها، بنفس الوقت، تحكي حياة جيل باسره، باحلامه ومحاولاته وتحدياته، وتحكي خيباته أيضاً.

لكن قبل ان نتابع هذه الرحلة يجدر بنا التوقف في بعض المحطات الاضافية.

[16]

يصادف في مراحل معينة، بالنسبة لعدد كبير من العاملين في السياسة، خاصة حين تتغير المعطيات والظروف، ان يغرقوا في الرمال المتحركة، وان يفقدوا القدرة على التكيف، هذه حالة كثيراً ما تكررت في ازمنة وأمكنة متعددة.

فاذا انتقلنا من العام إلى الخاص، نجد ان الباهي الذي ادمن العمل السري، وكان دائماً في جانب المعارضة والرفض، والذي تكوَّن فكره ونظرته، وبالتالي مواقفه، ضمن نسق معين، يصعب عليه ان يكون في واجهة العمل العلني، او ان يصبح إلى جانب السلطة والموالاة، الامر الذي سيجعله يواجه عدة مآزق.

فالثورة الجزائرية التي اوشكت على النصر، بعد ان بدأت فرنسا الديغولية تعدُّ نفسها للتعامل مع جزائر مستقلة، اخذت هذه الثورة تواجه الصراع والانقسام وامكانية الصدام، حتى قبل ان تقطف ثمار النصر. فقد دب الصراع بين مناضلي الداخل ومناضلي الخارج؛ بين العسكر والمدنيين؛ بين الاجيال؛ بين القوى السياسية والحزبية التي شكلت جبهة التحرير الجزائرية؛ بين الذين في السجن والذين خارجه؛ بين مناضلي الجبال ومناضلي المدن؛ بين الذين يعتمدون البندقية وحدها اسلوباً للخطاب والتعامل، وبين الذين يعتبرون السياسة فن

الممكن، ولا يتعدى العنف ان يكون احدى مراحل السياسة، او احد تعبيراتها.

وجهات نظر وقوى وحّدها الكفاح ضد فرنسا ـ الاستعمار، لان الهدف كان واضحاً، وكان الاسلوب محدداً، وان ظل مرناً، لكن اياً منهما لا يحتمل اجتهاداً او اختلافاً، اذ كان اخراج المستعمر واستقلال الجزائر يوحدان الجميع.

أما حين اوشكت الثورة على النصر، واصبحت الفترة لا تتعدى الاسابيع او الشهور القليلة، فقد ظهرت معظم الثغرات والعيوب التي تظهر عادة في ثورات العالم الثالث، هذه الثورات التي يجمعها ويوحُدها الخصم، وتفتقر إلى رؤية او استراتيجية ما بعد النصر. وهكذا بدأت الثورة الجزائرية تواجه مأزقاً وتحدياً في آن واحد. المأزق يتمثل في ان الرفاق الذين حملوا السلاح، وناضلوا طوال السنوات السابقة، لم يعودوا موحدين او منسجمين من حيث النظرة إلى المستقبل، ويتمثل التحدي في ذلك الكم الهائل من الدم الذي اريق من اجل الوصول إلى الاستقلال.

أما حين رفع المناضلون السلاح في وجوه بعضهم، وبدت في الافق بوادر حرب اهلية بين قوى الداخل والخارج، فقد ارتفع الصوت عالياً من كل صوب، من الداخل والخارج معاً، وحتى من فرنسا ذاتها، لشجب تسوية الامور عن طريق السلاح. كما عمت الاحتجاجات والمظاهرات منددة بهذا الاسلوب لفض الخلاف، وكان الشعار الذي رفعه المتظاهرون، خاصة داخل الجزائر، وطغى على كل ما عداه من شعارات: «سبع سنوات بركات». اي ان الثورة التي تواصلت لسبع سنوات مستمرة، وسقط فيها ما يزيد على مليون شهيد، لا تحتمل المزيد من الدماء.

كان الباهي ضمن الذين نادوا: سبع سنوات بركات. وكان من

المتحمسين والعاملين لحقن الدماء، ووقف اي صدام مسلح بين رفاق الأمس.

انها المرة الثانية التي يكتشف الباهي مدى الفرق بين الشعار الذي يُرفع والسلوك الذي يُتّبع في التعامل مع القضايا السياسية.

أما المرة الاولى، الصدمة الاولى، والاكتشاف الاول لهذه الحقيقة المرة، فيتمثل بسقوط تجربة الوحدة بين مصر وسورية. فهذا الشاب الذي ترك شنقيط، متخذاً الشمس سمتاً، وكان يريد الوصول إلى اقصى نقطة في هذا الوطن، وقد اعتبر وحدة مصر وسورية بداية الطريق، ما لبثت احلامه ان تجرَّحت، او اصابها عطب كبير، وهو يشاهد ويعيش سقوط هذه التجربة.

ليس ذلك فقط، كان الجو المحيط به، من اصدقاء فرنسيين واجانب آخرين، ينذر بمخاوف كبيرة حول المستقبل، وهؤلاء الاصدقاء لا يُخفون قلقهم، وبعضهم لا يخفي عنصريته، حين يشيرون، صراحة او ضمناً، إلى عدم جدارة شعوب العالم الثالث بعد بالحرية، وكان بعضهم يراهن على ان الاستقلال سيكون مأزقاً لهذا العالم، خاصة وانه لا يعرف ماذا يريد، او كيف يحكم نفسه. وللتدليل على احتمالٍ مثل هذا، كانوا يشيرون إلى غياب الديمقراطية في هذا العالم العربي الشاسع، عكس ما كان عليه الحال في بعض المناطق خلال اوقات سابقة، حين كان الاستعمار قائماً وحاكماً!

ولما سقطت تجربة الوحدة الاولى، والتي من اجلها غُيبت الديمقراطية، برضى الجميع، تقريباً، من اجل تلك الوحدة، او بسببها، فقد بدت الشماتة اكثر وضوحاً واشد فتكاً، وسادت روح من السخرية تشير إلى ان العرب لا يعرفون حكم انفسهم، ولا يتركون للآخرين ان يحكموهم، او يعلموهم كيف يجب ان يحكموا!

كانت مثل هذه الافكار تُسمع، او تقرأ في العيون، وكان عذاب المناضلين، الذين ظلوا يرددون العكس، اقسى واشد هولاً وهم

يشهدون تبدد الاحلام، وتراجع المواقف، مقارنة بالشعارات، والفرق الذي يكبر ويتسع بين ما يقال وما يجري في الواقع وعلى الارض.

الآن، والثورة الجزائرية تعيش هذه المحنة، هذا التحدي الذي يعصف بالافكار والاحلام معاً، كان لا بد من حشد جميع القوى، وعمل كل شيء من اجل تجنيب الثورة هذه المحنة القاسية، والخروج من هذا التحدي بنبالة وشرف، نبالة الفرسان المناضلين، وشرف القسم الذي وحّد الجميع، واحتراماً وتقديراً للدماء التي اريقت.

وحين تنتهي هذه المحنة يلتحق الباهي بالجزائر العاصمة، ويساهم بكل جهده، من خلال «المجاهد» في بناء الجزائر الجديدة، الجزائر المستقلة والمنتمية لمحيطها العربي. كان يقوم بعمل لم يتعود عليه، فهو الآن في السلطة او عند تخومها، ان لم يكن من خلال القرار، فمن خلال سلطة الثقافة والاعلام، وهما سلاحان لا يقلان اهمية وفعالية، خاصة في هذه المرحلة، عن القرار السياسي.

تجربة جديدة للرجل تختلف كثيراً عن مسيرته السابقة، فهو الذي تعوَّد على المعارضة، وكان فمه يمتلىء بتلك الكلمة المدوية: لا، وكان يتقن العمل السري إلى درجة الاحتراف، وجد نفسه في موقع لم يألفه من قبل، فقد اصبح مضطراً لتغيير طريقته في التفكير والخطاب والتعامل، خاصة وان نشوة النصر بدأت بالانحسار، واخذت المشاكل والمصاعب والتحديات، التي ظلت متوارية، او تحتل مرتبة متأخرة في سلم الاولويات، تطل برؤوسها وتتقدم على كل ما عداها، مترافقة مع استمرار التنافس بين مراكز القوى، بين المستفيدين والمتضررين من الصيغة الجديدة، بين الذين لا يزالون يواصلون احلام الثورة، واولئك الذين اعتبروا الثورة وسيلةً من اجل الوصول.

في ظل هذا الإحتراب المنذر باسوأ العواقب، وغالباً ما يدور في الظلمة، وبشكل شبه سري، ولان هذا الرجل لم يتعود الا الصراحة والوضوح، ولا يخشى من ابداء الرأي مهما كان مختلفاً عن الآخرين

او غير ملائم لهم، ولانه لا يريد ان يكون جزءاً من قوة تتآمر من اجل تعزيز مواقعها، تمهيداً للقفز والحلول مكان الآخرين، فقد شعر بالغربة، بعدم القدرة على الانسجام، وتالياً بعدم القدرة على الاستمرار، رغم طريقة السلطة، او على الاقل بعض اطرافها، في التعامل معه، والهامش الواسع من الحرية الذي تُرك له.

امتحان اقرب إلى المحنة حين يواجه المناضل وضعاً لا يستطيع ان يكون جزءاً منه، بسبب اختلاف النظرة، نبرة الصوت، طريقة التعامل، تصور الامور في مرحلتها الجديدة، كما لا يستطيع ان يكون خصماً، اي رافضاً، معادياً، وينضم إلى «الآخرين» إلى الذين يقدمون انفسهم بديلاً.

في هذا المنعطف كان لا بد من الوقوف، تمهيداً لاختيار جديد.

ولئلا يكون الباهي امتداداً للصيغة القائمة، ولكي لا يتحول إلى خصم، آثر ان يترك المركز إلى الاطراف، ان يغادر الجزائر، ليقيم في باريس، وليبعث برسالته الصحفية من هناك.

خيار صعب، لكنه اقل صعوبة من خيانة الافكار والشعارات والتخلي عن الاحلام، وذاك الشيء الهام النبيل الذي كوّنه سنة بعد اخرى، وجعله يغادر بلده الاول بحثاً عن الافق الذي سيطبع حياته حتى اللحظة الاخيرة.

خيار صعب لا يُقدم عليه الا من فُطِرَ على جنون داخلي يجعله دائماً في صف الشعراء والحالمين، ويدفعه باستمرار للبحث عن عالم اقل شراسة واذى، عله يجده في مكان آخر، في مرحلة أخرى. وهكذا بدأ رحلة عاصفة مجهولة، وكان الميناء النهائي لهذه الرحلة، اينما ذهب، ومهما قضى من ايام في الاماكن الاخرى: باريس. وهكذا اصبحت هذه المدينة، شيئاً فشيئاً، يوماً بعد آخر، داءه ودواءه، عذابه وفرحه، سجنه وحريته، والتي ستشكل خلال اكثر من ثلاثة عقود متوالية مأساته والنسغ الذي يمده بالحياة ويجعله قادراً على البقاء والاستمرار.

[17]

باريس، خلاف عواصم كثيرة في هذا العالم، مدينة الغواية الكبرى. تعرف كيف تحبب نفسها، كيف تغوي، كيف تأسر، واخيراً كيف تسيطر. انها تفعل ذلك بطريقة غريزية، علناً وفي كل الساعات. وتفعل ذلك بطريقة ساحرة، دون قسر، دون اي شعور انها تمثل او تتصنع.

اكثر المدن الاخرى تفعل شيئاً مختلفاً: تتصنع الاهمية؛ تتظاهر بالجمال؛ تقطب الجبين لتوحي بالجدية؛ ترفع صوتها من خلال المال او الصحافة، او حتى الجنون، لتقول انها اكثر إهمية من غيرها، اكثر ثراء او غرابة او حتى اكثر سفاهة!

باريس تفعل كل ذلك، او تتيح مجالاً لان يحصل كل ذلك، دون ان تقول انها هذا الشيء وحده، او هذا ما يميزها. ربما لشعورها بالامتلاء والغنى والتعدد، تاركة هوامش لا حدود لها من اجل ان تأخذ الاشياء شكلها واماكنها، ويجد البشر متسعاً من الحرية ليفعلوا ما يعتبرونه ملبياً لافكارهم ورغباتهم.

قد توجد مدن اكثر جمالاً من باريس في الصيف او الشتاء، في الليل او النهار، في النظام والصرامة والدقة، او في الجنون والفوضى، لكن حين يولّي الصيف في تلك المدن، حين تزول المساحيق بانقضاء

الليل، حين يختل النظام ويغيب القانون، نتيجة انقطاع التيار الكهربائي، مثلاً، «تنكشف» تلك المدن، تظهر على حقيقتها: باردة، قبيحة، قاسية، وعشرات الصفات الاخرى التي لا تظهر عبر ربطات العنق والياقات المنشاة، وعبر صوت المال وقوة النفوذ.

ولان باريس متعددة، رحبة، هكذا، تفسح مجالاً كبيراً لانماط من البشر والحياة لا تخطر على بال. تفعل ذلك ليس من اجل المزيد من السياح الاغنياء، وانما لان التراكم التاريخي جعلها بهذا الشكل، كما ان تكوينها اخذ هذا المسار، وبشرها، بمن فيهم الغرباء، اتخذوا هذا النمط من الحياة.

ومدينة من هذا النوع لا بد ان تستقطب الكثيرين، تحتضنهم حتى لو كانوا خصوماً، لانها تعرف، بالابتسامة، بالجهامة، بتلك النظرة الباردة، وبعض الاحيان بالقهقهات الصاخبة المجنونة، كيف تجعل الكثيرين يقبلون عليها بكل رضى وبرغبة التعايش مع المدينة، ثم الوقوع في غرامها، لانهم، بالدرجة الاولى، يعرفون كيف يتصرفون، في الوقت الذي تتظاهر المدن الأخرى، بصرامة زائدة، مبالغ فيها، لتحمل الآخرين على الامتثال والخضوع لتقاليد هي نفسها ترفضها، او تضيق بها.

الباهي الذي غادر الجزائر متحسباً، وربما خائفاً من النتائج، وجد باريس بانتظاره. فهذه المدينة التي عرفها في وقت سابق، وبطريقة معينة، لا تخلو من عداء، وجدها، الآن، تستقبله، ترضى به، ويمكن ان تنسج معه علاقة من نوع جديد.

بهذه الطريقة اصبحت باريس المحطة الرئيسية، المحطة التي تلتقي فيها جميع الخطوط. فاذا كانت، منذ نهاية القرن الماضي تنافس برلين لتكون بداية خط الشرق، نقطة الانطلاق نحوه، فقد حسم الامر، بعد هزيمة المانيا في الحربين الاولى والثانية، لتحتل باريس هذا الموقع. وهكذا اصبح أي إنسان، عربي او غير عربي، يريد اقامة علاقة مع

الشرق، لا بد ان ينطلق من باريس، خاصة بعد ان «انكشفت» لندن، ولم تعد موضع ثقة، او تتجه نحو المستقبل. ومما زاد في تأكيد هذا التباين وصول ديغول إلى الرئاسة، في الوقت الذي ازداد ارتباط بريطانيا باليمين المحافظ، وازداد ارتباطها بامريكا أيضاً، مما جعل الذين وصلوا إلى الاستقلال، الناجين من الاستعمار، اقل ثقة بهذه الامبراطورية العجوز، واكثر قناعة ان اليمين الفرنسي، ديغول تحديداً، اكثر عقلانية، واستقلالاً، وأيضاً اكثر جرأة في اتخاذ مواقف تناسب المصالح وتناسب الذين خرجوا تواً من ربقة الاستعمار.

ليس ذلك فقط، اذ رغم التاريخ الاسود الكثيف بين فرنسا ومستعمراتها، فان طبيعة الاستعمار الفرنسي الذي ينتقل إلى المكان الآخر بكل ثقة: لغة وثقافة وتشابكاً في العلاقات، استطاع ان «يجدد» نوعاً من الثقة التي قد تسمح بنسيان الماضي والبدء من جديد. وهذا ما حصل في المرحلة الجديدة بين باريس واكثر مستعمراتها السابقة.

لا نريد هنا استعراض العلاقة الفرنسية ـ الجزائرية، المغاربية، العربية، فهذه مهمة اخرى، ولكن عدداً كبيراً، ومتزايداً من ملاحقي الامس، المرفوضين، الخارجين على القانون، اصبحوا، بمعنى ما، مقبولين، قادرين على الاقامة، وقد يحظون ببعض الود والاعتراف.

كان الباهي من الذين وجدوا مكاناً في باريس. لم يقدم تنازلاً، لم يطمح لامتياز، لم ينتظر، ولم يقبل دعماً، فقط يريد مكاناً ليقيم فيه.

وفي ذلك الوقت، منتصف الستينات وكانت فرنسا تفتح ذراعيها لاستقبال الكثيرين باعتبار الاغلبية ايدي عاملة رخيصة، مسالمة، خاصة بعد الاستقلال.

في هذا المناخ عاد الباهي إلى باريس، وكانت تلك العودة، كما افترض، استراحة، هدنة بين حربين، لابد ان يجد بعدها مكاناً اكثر راحة، واكثر جدوى، لكن الشيء المؤقت، كما يقول نابليون، قد يصبح الشيء الدائم، وهذا ما حصل!

صحيح انه اعتبر باريس، خلال الفترة الاولى، محطة، يمكن ان ينطلق منها، مجدداً إلى المغرب، إلى الجزائر، ويوسع خطواته، بعض الاحيان، فيصل الشرق، ويبالغ احياناً اخرى فيصل كوبا، وقد يقضي في اي من هذه الاماكن وقتاً، يطول في بعض الحالات، لكن تبقى باريس المحطة النهائية التي يعود اليها، للاستراحة، للاستعداد إلى اسفار اخرى، إلى اماكن بعيدة او قريبة.

بهذه الطريقة يقع الانسان في الفخ. اذ ما دامت باريس محطة البداية والنهاية، ففي هذه المحطة تتجمع العلاقات الانسانية، والكتب، وبعض الاشياء الحميمة، بما في ذلك احتساء قدح من الجعة في مكان يعرفه ويألفه، ويعرفه فيه الآخرون، ولذلك فحين يعود إلى ذلك المكان يبدو اليفاً، صاحب محل، كما يقال!

واذا كانت باريس مدينة الغواية الكبرى، وهذا جزء من تكوينها، خُلق معها، ولم تتعلمه او تصطنعه، فان هذه الغواية بذاتها قوة جذب ووسيلة ترويض، ومثلما ينجذب الفراش للنور، والنحل للزهور، فان الذي ضاقت روحه من خصومات الاصدقاء، ومن النكد والشقاق الذي ليس له ما يبرره، وبين حلفاء الامس، يجد ان المدينة ـ الغطاء، المدينة التي يضيع فيها الانسان دون ان يعترضه احد، ولا يشعر بالرقابة او الحصار، تصبح مدينته، تصبح مأواه وغطاءه ومكانه الاليف.

فماذا حصل بين الباهي وباريس؟

[18]

اثناء الاقامة الجديدة للباهي في باريس، اخذت علاقاته بالمشرق تتسع وتزداد، بداية من خلال توجهه العروبي ثم من فضول الصحفي، وتالياً من خلال الاحتكاك المباشر والزيارات التي كانت تدوم، بعض الاحيان، شهوراً متعاقبة، لبعض مدن المشرق.

فاذا استعدنا بالذاكرة حجم الاحداث وتسارعها في المشرق العربي خلال عقد الستينات، بدءا من انفصال الوحدة بين سورية ومصر 1961، مروراً بثورة اليمن، ثم سقوط عبد الكريم قاسم في العراق عام 1963، ووصول البعث إلى السلطة في قطرين متجاورين هما العراق وسورية، ومحاولات تجديد الوحدة السورية ـ المصرية، واحتمال دخول العراق اليها أيضاً، والصراع السياسي القاسي بين التيارين القومي والشيوعي، وما ادى اليه من استنزاف على مستوى المنطقة كلها، بما في ذلك دخول الاتحاد السوفياتي على خط هذا النزاع، وبدء الكفاح المسلح الفلسطيني وقيام منظمة التحرير وما احدثاه من تفاؤل واحتمالات، وزيادة الاحتقان في النزاع العربي ـ الاسرائيلي، في نفس الوقت الذي بلغت فيه المجابهة المصرية السعودية ذروتها في اليمن.

في ظل هذا المناخ، وبسبب علاقات وثيقة ربطت الباهي بعدد من

اصدقاء المشرق، او من المغاربة الذين درسوا في دمشق وبغداد والقاهرة، اضافة إلى الزيارات التي حملته إلى دمشق وبغداد بشكل خاص، فقد وجد نفسه «يتورط» شيئاً فشيئاً في قضايا المشرق العربي وينخرط فيها إلى اقصى حد.

لقد حصل هذا في الوقت الذي انكسر الامل او تراجع في اقطار المغرب العربي الثلاثة، نتيجة الاحداث التي وقعت هناك، اذ انقسمت الحركة الشعبية في المغرب الاقصى، ودب النزاع بين رفاق الامس، كما انفصلت الحركة النقابية، بحجة القضايا المطلبية، بعد ان كانت جزءاً مهماً من الحركة الشعبية. أما في تونس فقد فرض الحبيب بورقيبة نظام الحزب الواحد، واستأثر بالسلطة كلياً، ولجأ إلى حذف او تغييب رموز الحركة الوطنية التي ناضلت وضحت من اجل الاستقلال.

وقبل ان تنقضي ثلاث سنوات على استقلال الجزائر قفز الجيش إلى السلطة، ووضع يده على مقاليد الحكم والحزب والثورة، والثروة أيضاً، ووضع القادة التاريخيين ومعهم رهط كبير في السجون، ومن استطاع منهم النجاة والبقاء خارج الجزائر، ظل سيف الملاحقة والتصفية يلاحقه.

ورغم ان الباهي لم يتخل عن متابعة هموم المغرب، وقد فعل ذلك بوسائل شتى، كان اقلها العمل الصحفي، الا ان همومه المشرقية تزايدت في هذه المرحلة، وكأنه راهن، او توقع، ان جزءاً مهماً من مشاكل المغرب العربي لن يجد حلاً الا من خلال وضع عربي معافى، ومن خلال ضغط معنوي يمارسه المشرق على المغرب. وهذا ما جعله يقترب، وإلى درجة الاندماج، بالقضية الفلسطينية، وإلى ان يرحل في هذا العالم العربي الشاسع بحثاً عن امل، عن نقاط مضيئة، لعلها تكون بداية لشيء جديد!

واذا كان قد جاء في وقت سابق إلى بيروت، وبدا ببرنسه المغربي

طريفاً، وقد استطاع خلال تلك الزيارة ان يقيم علاقات مع كثيرين، وان يوضح ويشرح الكثير عن الثورة الجزائرية وقضايا المغرب العربي بصورة عامة، فقد جاء الآن لاقامة طويلة، وكي يعمل في الصحافة المحلية السورية.

صحيح ان الفائدة التي يمكن ان يجنيها في اطار العمل الصحفي ستكون متواضعة، نظراً لمستوى تلك الصحافة، لكن سيجني عوضاً عن ذلك معرفة واسعة بهموم ومشاكل هذا القطر، وسيجني أيضاً علاقات انسانية وثيقة بعدد كبير، بحيث لا يبدو مستغرباً في وقت لاحق ان يعرّف سوريين على سوريين آخرين لم يكونوا يعرفون بعضهم مباشرة من قبل!

ليس ذلك فقط، سينقل الكثير عما عرفه وخبره في المشرق، إلى قرائه في المغرب، وستكون كتاباته الصحفية معيناً ومصدراً للعديد من القراء في المغرب، وسوف تترك تأثيراً بارزاً حتى على الحركات والشخصيات السياسية المغربية، لان الباهي، من خلال هذه المعرفة، اصبح مصدراً ملمّاً وموثوقاً، وبالتالي يُعْتَدُّ بالكلمة التي يكتبها وبالرأي الذي يبديه، خلافاً للكثير من الكتابات الصحفية التي تنقل فقط وجهات النظر الرسمية، او تقتصر على المعلومات العجلى المبتسرة، والتي كان ضررها اكثر من فائدتها، نظراً لما تولده من تشويش قد يصيب حتى صانعي القرار.

«ان نصف المعرفة اشد خطراً من الجهل» هكذا كان يفكر الباهي، وربما يقول، لان طريقته في استقاء الاخبار لا تقتصر على القمة، بل تتجاوزها إلى ما يقوله، او يفكر فيه، القاع. وهذا ما يجعله، بعض الاحيان، رغم توفر جزء من المعلومات عن حدث ساخن يمتنع عن الخوض فيه او الكتابة عنه.

بمعنى آخر: لم يكن الباهي شغوفاً بالسبق الصحفي، والذي يعني الكثير للآخرين. كان اشد اهتماماً بالتحليل، بمعرفة الخلفية

والاسباب، واخيراً النتائج التي تترتب على حدث من الاحداث، وهذا ما جعل لكتاباته الصحفية نكهة مختلفة عن كثيرين.

وقد تحسن الاشارة هنا أيضاً إلى ميزة اضافية في كتابات الباهي، وربما لا يتمتع بهذه الميزة الا عدد محدود من صحفيي المغرب، وهي اللغة. ففي الكتابة المغربية، الصحفية تحديداً، يخيم، لغوياً، احد مناخين، او الاثنان معاً: مناخ الترجمة، وفي بعض الحالات حرفياً، عن الفرنسية، بحيث يتعذر على قارىء مشرقي استيعاب عدد من المصطلحات والتعابير. أما المناخ الآخر المسيطر فهو اللغة التراثية، وتالياً الاسلوب الكلاسيكي، بحيث تبدو الصيغة وكأنها انحدرت بكل ظلالها من جبة احد مشايخ العصور القديمة!

طبيعي يمكن ايجاد تفسيرات ومبررات لسيادة هذين المناخين، فالاستعمار الفرنسي الذي كان شديد الوطأة، وطال حتى اللغة العربية، خاصة في الجزائر، وبذل جهداً ليس قليلاً من اجل اضعافها، او حتى تغييبها، ترك هذا الاستعمار تأثيراً كبيراً على اللغة العربية، وعلى اسلوب الكتابة.

بالمقابل حاولت المقاومة الشعبية ان ترد على هذا التحدي، لكن لم تجد في حوزتها سوى لغة التراث، والاسلوب القديم، للرد، خاصة في ظل الحصار المفروض، مما جعل هذه اللغة تبدو، في حالات كثيرة، محنطة، عاجزة، خاصة وقد جَدَّ كَمٌّ كبير من التغيرات على اكثر من مستوى.

ميزة الباهي، واهميته، في هذا المجال، انه ساهم في تطويع اللغة الصحفية، اذ جعلها اكثر مرونة لتلبية الحالات والحاجات الجديدة، وبالتالي اكثر عصرية. وقد ساعده على ذلك المعرفة المتينة باللغتين العربية والفرنسية، ثم الاحتكاك بلغة واساليب جديدة في التعبير كانت سائدة في المشرق.

صحيح انه لم يخضع للمدرسة الصحفية المشرقية، لكنه استفاد من

الصفات الايجابية التي تتمتع بها، واضاف اليها امرين، الاول: احترام التقاليد الفرنسية المكتسبة من حيث الدقة في التعامل مع المعلومة، واستبعاد الترهل في اللغة، خاصة الانشائية؛ والثاني توظيف لغته المشرقة من اجل الوصول إلى لغة لا تبدو مترجمة، كما لا تبدو تراثية قديمة، وربما يعتبر الامران من ابرز الاضافات النوعية التي ساهم الباهي في احداثها، وقد انعكست، بوضوح، وبشكل متزايد، في الصحافة المغربية، نظراً لاستمرار علاقته ومساهماته، في الوقت الذي تباعدت وتقطعت مساهماته في صحافة المشرق.

ان احد عيوب الصحافة العربية، المشرقية تحديداً، الكم الهائل من الترهل والانشاء والثرثرة، وأيضاً الايديولوجيا والشعارات، بحيث تضيع المعلومة، او تختفي تحت هذا الركام الكبير. ثم الخلط المتعمد بين الخبر والرأي السياسي، في الوقت الذي تجاوزت فيه الصحافة الاوروبية، الفرنسية بالذات، قسماً كبيراً من هذه السلبيات. اصبحت الصحافة الاوروبية تتوجه إلى العقل تخاطبه، لا إلى العواطف تثيرها، وقد انعكس ذلك في طريقة صياغة الخبر، بحيث يحمل اكبر قدر من المعلومات والحقائق، وفي الجانب الآخر التعليق او وجهة النظر، تاركة للقارىء ان يجتهد في قراءة الخبر وتكوين وجهة نظره الخاصة حوله.

كان الباهي معلقاً صحفياً اكثر مما هو صحفي. صحيح ان تعليقه يتضمن كمية كبيرة من الاخبار، يوردها في التعليق، كوقائع وشواهد، لكن يبقى الهدف الاساسي: كيف نقرأ الخبر؛ كيف نضعه في سياقه وعلاقته مع الوقائع الاخرى؛ ما يكمن وراء الخبر من حيث التوقيت او صدوره من هذا المرجع او ذاك، واخيراً ماذا يحمل من معان وما يؤدي اليه من نتائج.

أما في جانب اللغة، وكان هذا الموضوع مشوقاً له، فكثيراً ما جعله مادة لنقده الساخر، وكان لديه من الشواهد الطريفة الكثير، خاصة في

الفترة الاولى لاستقلال الجزائر، والاسلوب الذي اتبع في تعريب عدد كبير من المصطلحات الفرنسية، وايجاد مقابل عربي لها!

قد لا يتوفر مقياس دقيق لتحديد مقدار مساهمة الباهي والآثار التي خلفها في الصحافة المغاربية، خاصة من حيث اللغة، لكن اية مقارنة لصحافة الستينات بصحافة اليوم تظهر فروقاً مهمة، ولعل الباهي احد ابرز الذين ساهموا في هذا التطور.

[19]

يميل بعض الناس إلى تلخيص المدن بعبارات مدرسية: نيويورك تمثال الحرية وحي هارلم. اسطنبول مدينة الجوامع. لندن ساعة بغ بن وقصر بكنغهام. أما باريس، حين يراد تلخيصها، بنفس الطريقة، فيقال: برج ايفل وقوس النصر، وقد يضاف اللوفر.

هذه الطريقة في اختصار المدن، بالاضافة إلى فقرها، فهي مضللة، لان المدينة، اية مدينة، تستعصي على الاختصار، اكبر من ان تحشر ضمن كلمات يسهل حفظها، ليسهل بالتالي تردادها. فالمدن من الغنى والتنوع، ومن التغير أيضاً، إلى درجة انها تخلق اضافات كل لحظة، وتتجاوز، اغلب الاحيان، اي تحديد.

اذا كان هذا حال المدن، فماذا عن مدينة المدن، عاصمة العالم: باريس؟

يمكن ان يقال انها تختلف عن... وحين يبدأ تعداد الاختلاف بينها وبين المدن الاخرى يحار الانسان حول ما يمكن ان يضيفه، اذ لديه الكثير ليقوله في هذا المجال!

ولعل اول اكتشاف لابرز اختلاف سوف يستوقف الباهي، وسوف يرافقه حتى النهاية في هذه المدينة التي وقع في هواها: المقهى!

أما لو سألنا انفسنا او سألنا الباهي: كم سنة من عمره قضى في المقهى، فلن يحمل هذا السؤال اية مبالغة. فالمقهى بالنسبة له: مكان الاقامة، العنوان، مكان العمل، صالة استقبال الزوار و «المراجعين»، وبعض الاحيان ميدان معركة لتصفية الخصومات والإختلافات، وامام جمهرة غفيرة من الشهود!

لقد ادمن الباهي، منذ وقت مبكر، المقهى. والمقهى هنا فضاء اكثر مما هو مكان. صحيح ان هذا الفضاء يتحدد بالمكان، غير انه لا يتحدد بمكان بالذات، اذ يتغير ويتحرك تبعاً للموقع الذي يكون فيه، والرغبة التي يراد اشباعها في ذلك الوقت.

فالكتابة لها مقهى، والثرثرة لها مقهى آخر. أما حين يريد ان يتملى البشر والحياة فلا بد ان يختار مقهى قريباً من احدى محطات المترو، والافضل ان يطل هذا المقهى على شارعين او اكثر!

وحين تشتعل نفسه بالرغبة لكأس من الجعة المميزة، فان لهذه مقاهي خاصة يتوجه اليها بحماس حتى لو بعدت المسافات!

واذا كانت عادته، حين يكون في المقهى وحيداً، ان يفتل طرفي شاربيه، فانه يترك لهذين الطرفين ان يتدليا، ان ينغمسا، في كوب الجعة الجيدة، وهذا احد مؤشرات الاسترخاء والانسجام، عكس ما كان عليه الحال وهو يفتل الشاربين.

ولان للاغنياء مقاهيهم، وللفقراء اخرى، وتكون مقاهي الفقراء عادة صغيرة، منزوية، في شوارع فرعية، وبعض الاحيان بلا اسماء، أو بأسماء صعبة او غير مألوفة، ولان «العربان» خاصة بعد «ثورة» النفط هجموا على باريس، واصبحت مربط خيلهم! وكي يبرهنوا على غناهم ووجودهم، فقد اصبحوا رواداً دائمين في مقاهي الاغنياء، الامر الذي جعل الباهي يقاطع هذه المقاهي ويقاطع المنطقة الموجودة فيها.

لم يُشاهد الباهي جالساً في واحدة من مقاهي الشانزليزيه الا نادراً او مضطراً. كان يرفض ذلك بطريقة اقرب إلى الاحتقار. وما دامت

لديه بطاقة المترو الشهرية، فقد كان قادراً على الذهاب إلى ابعد الامكنة، وهذا ما كان يفعله دون تردد.

اكثر من ذلك كان يستغرب وصول بعض أغنياء النفط إلى الحي اللاتيني، كان يقول بسخرية، وبعض الاحيان بصوت عال: طائر اضاع سربه! كما كان يروق له مراقبة هؤلاء وتصرفاتهم، لينطلق بعد ذلك في محاضرة حول التخريب الذي احدثه النفط!

كان لدى الباهي هوس باكتشاف المقاهي والتعرف على اجوائها. واذا كان قد استقر خلال السنوات الاخيرة على مقاه بالذات يؤثرها على غيرها، فان وصول ستار الدوري إلى باريس، واقاماته التي كانت تطول بعض الاحيان، خلقت مجموعة من الاسماء والطقوس ساهم فيها الباهي، ثم عممها. فمقهى Cluny كلوني اكتسب اسماً جديداً: مقهى عبد الرزاق، تيمناً بعبد الرزاق عيد الذي جاء مصادفة، وانضم إلى المجموعة التي كان ضمنها الباهي والدوري. وحين يتصل احد الاصدقاء بستار للاتفاق على مكان اللقاء، كان يرد بجرأة: مقهى عبد الرزاق! أما Le petit Cluny كلوني الصغير فأخذ اسم مقهى العندليب، لان مغنياً قبيح الصوت ظل واقفاً فترة طويلة يغني، وكان ستار الدوري يفترض ان إعطاءه بعض النقود يمكن ان يصرفه، لكن هذا المغني تصور العكس، اذ ظل يمطر رواد المقهى باغانيه، ومنذ ذلك اخذ المقهى هذا الاسم!

أما مقهى La perigourdine لابريغوردين، فقد اكتسب بجدارة، وبسرعة، اسم مقهى عزاوي تيمناً بذاك المقهى الذي يتردد في الاغاني العراقية! وربما لا يزال بعض العرب المقيمين في باريس يطلقون على هذا المقهى نفس التسمية حتى الآن!

وفي ساعات التعب او الزهق، ولان ستار اقل معرفة بباريس وزواياها، كان يؤثر «قهوة الطرف»، كما كان يطلق على المقهى القريب من مكان سكنه، وقد راقت التسمية للباهي، ولان لكل طرف،

اي الحي، مقاهيه، فكانت تتم الزيارات بين الاطراف، والطرف لساكنه مكان نفوذه وأحد مظاهر الحفاوة والكرم!

لا اظن ان احداً من العرب الذين اقاموا في باريس يعرف مقاهي تلك المدينة كما يعرفها الباهي. وفي اطار استكمال دراساته حول باريس كان يعرف ايّ المقاهي تعوَّد همنغواي على ارتيادها، وفي اي المقاهي «يقيم» سارتر. وكان يروق له ان يكشف سراً في بعض الاحيان: اذ بعد ان «يزورب» في عدة شوارع فرعية، يتوقف امام مكان لا يشي منظره الخارجي انه مقهى، لكن الباهي يقتحم، ويصعد إلى الطابق الثاني، وبعد ان يجلس إلى طاولة رخامية معينة، يبتسم ابتسامة ظاهرة، مع سؤال لا يخلو من تحدٍ: اتعرف من كان يجلس على هذه الطاولة قبل قرنين؟ وحين تبدي جهلك وعجزك، يقول بعد فترة صمت طويلة: على هذه الطاولة كان يجلس فولتير!

واذا افترضت ان احدى المقاهي في ميدان فكتور هيجو، كان يرتادها الكاتب الكبير، فلا بد ان يقودك الباهي إلى مكان في اقصى المدينة، من الجهة الاخرى، كي يدلك على مقهى ذلك الكاتب!

ديدرو، لوتريك، اراغون، وجان جنيه حين يكون خارج السجن، وبيكاسو والمجنون سلفادور دالي، كان الباهي يعرف مقاهيهم. ولنفي اي ادعاء، ولتأكيد صحة ما يقوله، وهذه احدى صفاته المميزة، لا بد ان يبدأ حديثاً، وقد يطول هذا الحديث، مع الجرسون، عله يضيف إلى معلوماته معلومة جديدة حول الكاتب او الفنان الذي يسأل عنه.

لو ان للمقاهي اوراقها الخاصة او اختامها، لاكتشفنا ان كل ورقة كتبها الباهي تحمل اسم احد المقاهي او ختمه، اذ كان يكتب معظم، وربما كل مقالاته في المقاهي، كما هي العادة الفرنسية التي اتبعها عدد غير قليل من الكتّاب. واذا «قبض» عليه في احد هذه الامكنة، وهو يكتب مقالاً من مقالاته، كان يُرى ويده بين فترة واخرى، واثناء الاستراحة من الكتابة، تمتد إلى طرفٍ من شاربيه، علّ الفكرة تواتيه

بشكل اسرع واجمل وهو يفتل الشارب!

واذا كانت اماكن العمل بالنسبة لمعظم الناس معروفة، علنية، فانها بالنسبة للباهي اوكار سرية. صحيح انه يعمل في صحيفة، او يراسلها، لكن قلما تجده في مقر هذه الصحيفة، وحين يُسأل عن ذلك، كان يرد والابتسامة تطفو على وجهه كالموجة:

ـ ماذا يريد رب العمل؟ هل يريد ان يتمتع برؤية وجهي السويدي ام يريد المقال الذي اكتبه؟

ولان ارباب العمل تعودوا على انه هكذا، فلم يكن اغلبهم يطالبه باكثر من ذلك، وحتى لو طالبوه لم يكن ليستجيب، فاذا اصروا يقع سوء التفاهم، وربما القطيعة أيضاً، وهذا ما حصل عدة مرات!

وباعتبار ان للباهي علاقات واسعة ومتنوعة، ولكل علاقة مقاهيها، نظراً لاختلاف الامزجة واماكن الاقامة، كان يُشاهد في مقاه لا يعرفها او لا يرتادها العرب. كما ان مقاهي الاصدقاء المغاربة تختلف عن مقاهي اصدقاء المشرق، نظراً للعادة والمعرفة السابقة، ولذلك يعتبر الباهي احد الاشخاص القلائل الذين يجمعون الوحدة والتنوع في آن واحد، خاصة وان علاقاته الفرنسية كانت غنية ومختارة، وكانت في اطار خلق التَفاعل بين حضارتين ولغتين وغالباً تتم في المقاهي.

ورغم اتساع علاقات الباهي العربية في باريس، فقد كان يضيق، في احيان كثيرة، من التجمعات القبلية، ومن ذلك الغيتو الذي يفرضه العرب على أنفسهم، اذ كان يعزو ذلك إلى الخوف، إلى عدم الثقة، إلى التكوينات البدائية الطفلية، كما كان يحلو له ان يصفها. وفي اطار تجاوزها وتحديها، كان قادراً على اقامة علاقات مغايرة تماماً. فما ان يتوجد في مكان، اي مكان، حتى يبدأ بنسج علاقات شديدة التنوع والغنى، يتوسل إلى ذلك بطلب القداحة أو علبة الثقاب، كي يورث سيجارته، او بالسؤال عن الساعة، والعادة ان لا يحمل في يده ساعة، وانتهاءاً بمناقشة سياسية قد تكون دقيقة وهامة!

ولان اكثر مقاهي باريس تصبح، بمعنى ما، مطاعم وقت الظهيرة، اذ تقدم اطباقاً مختارةً خاصةً بها، او تقدم وجبات سريعة، فان الباهي يعرف ان كان عليه ان يبقى في ذات المقهى، ويطلب طبقاً معيناً، او ان يغادر في اللحظة المناسبة، وقبل ان يضيق صدر الجرسون الذي يبدأ استعداداته مبكراً من اجل إستقبال الطاعمين!

ففي مشارب الجعة الخاصة، يعرف كيف يطلب طبقاً ربما يكون جزءاً من طقوس المكان، اذ في هذه المشارب التي لا تقدم سوى الجعة، بتنوعها المذهل، والآتية من جميع انحاء العالم، يعرف ان لها اطباقاً لا يوجد لها مثيل، ولذلك يعرف متى يذهب اليها، وإلى متى يجب ان يبقى فيها.

أما مقاهي الزوايا، مقاهي الانتظار، فلا يطيق ان يتناول فيها طعاماً، فيغادرها في الوقت المناسب، لا ليبدأ البحث عن مطعم، وانما ليحدد الموقع تمهيداً للوصول إلى المطعم المناسب. وكثيراً ما يستغرب الانسان كيف امكنه الاهتداء إلى مثل تلك المطاعم، والتي لا يعرفها حتى ابناء الحي!

والطعام بالنسبة للباهي احد النقاط الضعيفة، انه، مثل اكثر البدو، يحب الطعام الدسم، وأيضاً الذي يملأ المعدة والعين في آن واحد. ولذلك يختار اطباقاً حافلة بالالوان والمواد، وحين تأتي ينظر اليها بمتعة وتلذذ قبل ان يمد يده اليها، اذ يشمر عن ساعديه، ويسحب انفاساً عميقةً لتنفذ رائحة الطعام إلى جسده كله، ثم يبدأ التعامل معها بكثير من الاحتفاء.

كان مبروك، في مطعم بوب المغربي، قرب جريدة الفيغارو، يتهلل فرحاً حين يرى الباهي داخلاً. كان يقبل عليه كأنه آتٍ من سفر طويل، رغم انه يراه كل اسبوع، ويعرف انه في باريس، وبعد ان يحييه بحفاوة، يقول:

ـ والله نشمّ فيك ريحة البلاد يا السي الباهي.

وتعبيراً عن الود تتوالى الصحون الاضافية، كي لا ينسى الباهي الاكلات المغربية، كما يقول مبروك!

في جزيرة سان لوي، اكتشف مطعماً فلاحياً، كان الأحب إلى نفسه. ففي هذا المطعم الذي يبدو لاول وهلة وكأنه دهليز طويل، وما يكاد الانسان يألف جو الصخب والدخان، ويجد مكاناً إلى احدى الطاولات البسيطة، حتى يطل الجرسون حاملاً سلة كبيرة مليئة بانواع عديدة من الخضار ودورق النبيذ. حين يرى الباهي السلة يصبح كالطفل امام مجموعة من الهدايا الثمينة. كان يضحك بصخب، يقلب الخضار باعجاب، يتطلع إلى الوجوه ليقرأ فيها المشاركة بالفرح!

وبعد ان يقدم شرحاً وافياً عن المطعم وتقاليده، يترك جزءاً من الاسرار إلى وقت لاحق، إلى حين انتهاء دورق النبيذ، وبطريقة لا تخلو من بهجة يرفع الدورق وهو ينهض، ويقول بطريقة اقرب إلى الامر:

ـ تعال. . تعال لتشهد الطقوس بعينك!

ومثل رب البيت يتقدم بخطوات ثابتة، يدلف إلى الجزء الداخلي، حيث تصطف براميل النبيذ، ويملأ الدورق من جديد، ويحمل صحناً من اللحم المقدد، وهو يقول بفخر:

ـ في هذا المطعم يشعر الانسان كأنه في بيته!

بعد ساعة او تزيد يعود مرة اخرى الجرسون الذي حمل سلة الخضار ودورق النبيذ، ليسأل، من جديد، عن نوعية اللحم الذي يفضله كل واحد. ينظر الجالسون إلى الباهي، كأنهم يلومونه، لانه لم ينبههم للصحن القادم، يضحك بظفر، فهذا احد اسرار المطعم واحد تقاليده!

أما السر الأخير بعد صحون عديدة، فهو ان المطعم يتقاضى مقابلاً عن «الرأس» بغضّ النظر عمّن أكل او لم يأكل، الوجبة كلها او قسماً منها!

أما الوصية التي يحرص عليها الباهي و «الربع» يغادر المطعم، فهي :

- ليبق هذا المطعم للفلاحين ولامثالنا من البدو، أما اذا ارتاده «المثقفون» العرب فلا بد سيفسدونه، ولذلك الافضل ان يبقوا بعيدين عنه!

مقاه كثيرة ستفتقد الباهي، وسوف تحزن كثيراً اذا عرفت انها لن تراه مرة اخرى.

[20]

من البلاهة في حالات الحزن الكبرى اللجوء إلى استعمال كلمات فخمة، مستقرة، معروفة، للتعبير عن لوعة القلب، عن طعم الرماد، عن ذاك الذي يعصف بالنفس قوياً، جامحاً، وان يكن بصمت، ليجعل كل شيء دون معنى، او باقل اهمية تتراءى للانسان. انها الحالة التي لا يجب ان توصف ما دامت تعاش، ما دامت قوية إلى درجة لا تترك مكاناً لشيء غيرها.

والحزن ليس فقط ان يفقد الانسان انساناً كان مملوءاً بالحياة، ثم فجأة إنطفأ وغاب، فرغم ان هذا الحزن يعصف بالروح، الا ان تكراره يجعله مفهوماً، ممكناً، ولانه بهذا الاتساع في كل وقت وفي كل مكان، يصبح الانسان مهيئاً للتعامل معه، وربما لاحتماله. قد يكون قاسياً اكثر مما يطيق القلب، اكثر مما يحتمل الفرد، وقد يبدو غير مفهوم، بل ويثير الغضب، لكنها الحياة تعلّم، ولها قوانين بالغة الصرامة، فيضطر الانسان لان يتعلم، لان ينسجم مع قوانين الحياة، لكن ما لا يمكن فهمه او قبوله ذاك الذي وقع غداة يوم من ايام حزيران.

كان الطقس، كما تقول النشرة الجوية، صحواً. وكانت الثقة بالنفس، كما تقول كل الاذاعات والصحف، تصل إلى درجة الكمال.

وكان الحقد سيد المواقف.

وفجأة، في ذلك الطقس الصيفي، تهبط الحرارة إلى درجة الانجماد، وتنحدر الثقة إلى حد التلاشي، وذلك اليوم الذي انتظره الجميع ليغسلوا عاراً قديماً يصبح هو ذاته يوم العار الكبير.

لا حاجة، الآن، لكلام كثير حول ما حصل في الخامس من حزيران عام 1967.

سوف تنقضي سنوات كثيرة قبل ان يندمل هذا الجرح، قبل ان تعاود الدورة الدموية مسيرتها الطبيعية، قبل ان تتوازن الروح.

والجرح لن يندمل وحده او بمرور الزمن. والدورة الدموية لن تتابع مسيرتها هكذا وكأن شيئاً لم يكن. أما الروح فسوف تلوب، في الليل والنهار، في الصحو والغياب، إلى ان تقتص، إلى ان تعيد للفصول مساراتها وتواليها، وحتى تكتسب الاشياء اسماءها الحقيقية.

أما الصوت العالي فلا يعني الحق دائماً. أما القوة فيتم تداولها بين الشعوب والازمان، ليس وفقاً للرغبات، وانما لقوانين شديدة الصرامة، واعتماداً على عناصر وعوامل، وان امكن فهمها، لكن يصعب التحكم بها دائماً، ولذلك فان كل شيء مؤقت، وكل شيء قابل لاعادة النظر، لان الحركة لن تتوقف، والمحاولة لا بد ستكرر، إلى ان تستقيم الاشياء.

الباهي، مثل كل العرب، وفي ذاك الزمان على وجه التحديد، فهم «قوانين» الحالة، كما قدرها، كما عُرضت معطياتها، وكما ارادها الجميع، لكن الفرق كان كبيراً، إلى درجة انعدمت الصلة او المقايسات.

ما قدره اعتماداً على كم كبير من العناصر والاسباب لم يتحقق.

ما قدمه الآخرون من معطيات وحجج كان مليئاً بالمبالغات الاقرب إلى الاكاذيب.

ما قالته الصحف تلفيق يراد به خداع النفس، خداع الداخل، لا تفسير لما حصل في الواقع.

ما قُدم كان مجرد تبرير، كان تواطؤاً على النفس، استمراء للعذاب وللتعذيب، ولم يكنْ ادانة للأسباب ومحاولة لتجاوزها.

وهكذا وقع الباهي، مثلما وقع كل الجيل، في دائرة النار.

بكى إلى درجة التلف. شتم إلى درجة البذاءة. تعلل بحجج واسباب قد ترضي الذات في اللحظة، لكن تمزقها، وقد تدمرها، في اللحظات التالية. كفر بكل ما آمن به سابقاً، وكاد يؤمن بكل ما كفر. اعاد ترتيب الاسباب كي يفهم النتائج، فلم يفهم لا الاسباب ولا النتائج. برّد اعصابه إلى درجة الغياب، واوقد تحت دماغه كل مشاعل العلم وقوى «الحقيقة» لعله يهتدي او يصل، فما اهتدى ولم يصل، وهكذا زاد تيهاً وضياعاً. سأل الاصدقاء وسأل الخصوم، فلم يقنعه احد، ولم يشفه من دائه انسان. اعاد قراءة التاريخ، وتوقف عند احداث اعتبرها كافية لتفسير ما حصل، فقال له التاريخ اشياء كثيرة زادته حيرة وتعباً، وقالت له الاحداث التي توقف عندها اموراً مغايرة، ولم تكن في البال.

بعد رحلة طويلة مضنية زاد الباهي تعباً فوق كل التعب. ظنّ وشكّ وكفر، وعاد من رحلة الظن والشك والكفر إلى مأزق الحيرة، ليعرف ما حصل. عاينه، تأكد منه. زالت غشاوة الاذاعات والصحف، وزالت معها، او قبلها، تصريحات القادة، وانكشفت الامور إلى درجة العري الكامل، لكن الحيرة ظلت قوية مستبدة.

سأل: كيف يمكن لامة بهذا العدد، بهذه الامكانيات، بهذه المساحة، وأيضاً بمناخ التحدي والضجيج، ان تُهزم بهذه السهولة؟ لماذا حصل كل ذلك، ولم ينقلب العرب على انفسهم وعلى واقعهم ليصبحوا خلقاً جديداً؟

والسؤال الصغير يكبر، يكبر إلى درجة يسد الافق، والشك اذا بدأ في مكان يتسرب إلى كل الامكنة، وهكذا يبدأ العذاب.

كان الباهي واحداً من الذين تعذبوا كثيراً. عذبه الشك وعذبه انسداد الافق، كما عذبه الوهم حين اصبح «حقيقة» مسيطرة. كان العذاب يطارده في الليل والنهار، في الصحو واثناء الغياب. وكان السؤال ـ الحربة الذي يمزق احشاءه: لماذا؟ ومن هذا السؤال، الذي يحمل البراءة الساخرة، كانت تتفرع آلاف الاسئلة المضنية، وكلها تحاصره وتضغط. وبمقدار ما يحاول ان يكون عقلانياً، متوازناً، في تفسير ما حصل، كان يصطدم، في النهاية، بجدار الشك. وجدار الشك من اصعب الجدران واشدها قسوة، لانه ينقض البديهيات، لا يرضى بالمسلمات، ويرفض الرياضيات البسيطة: رياضيات: الجمع والضرب.

كان يفترض ان يُطرح بديل عن ذلك يتلخص: بسقوط التحريم. ضرورة مناقشة كل شيء بنفسية الاطفال، وبعقول المرابين. لا شيء، ولا شخص، مقدس او غير قابل لاعادة النظر والمحاسبة.

ورحلة الشك اذا بدأت تطول، وقد لا تفضي الا إلى المزيد من الشك، وبالتالي إلى تفريع المزيد من الاسئلة، التي لا يستطيع الانسان ـ الفرد ان يجيب عليها بمفرده.

ولان الوقت لم يكن رحباً من اجل بدء الحوار، ولان الذين في مركز القوة يريدون لفلفة الجريمة والتستر على «الفاعل»، ولان العقل كان منفعلاً اقرب إلى الهذيان، لم يجر تعليق الجرس، وتُركت الرياح وحدها تخط الدروب والمسارات، وهكذا زاد الالم وتراجع الشك وانغرست في القلوب روح اليأس، واخذ كل انسان بمفرده يفتش عن طريق للخلاص، الخلاص الفردي، او ما يمكن اعتباره الخلاص الجماعي، وهنا تعددت وتشعبت الدروبُ.

وحين تتعدد الدروب وتتشعب في مواجهة الهزيمة، وحين ينتقل

الفكر والناس من ضفة إلى اخرى، بهذه السرعة، وحين يصبح التطرف، اياً كان، وفي اي اتجاه، ميزة وشعاراً، فعندئذ تتداخل القيم والمقاييس، وتتناطح الشعارات ثم تختلط، وتصبح الهزيمة امراً واقعاً، قدراً، وتحتل النفوس، بعد ان كانت حدثاً مثل احداث كثيرة تصيب الامم وتعرف كيف تتعامل معها.

هكذا جاء زلزال حزيران، وهكذا فعل. وبدل ان يكون فرصة لتجاوز المسلمات، ومناقشة البديهيات، وفتح حوار نقدي شجاع، يشترك فيه الجميع، تمهيداً لمعرفة نقاط الضعف، واعادة قراءة الواقع، ووضع اولويات من نمط جديد: اكثر تواضعاً لكن اكثر صلابة في بناء المجتمع، بدل ان يحصل هذا استمر الغرق في الشعاب الحزيرانية المنصوبة: التفجع واللوعة، الندب وجلد النفس، التطرف والمزاودة، واخيراً اليأس.

ولم ينجُ من الغرق الا من عصم الله، او من وجد طريقاً جديداً.

وتراءى للباهي انه وجد هذا الطريق قبل ان تمضي سنة على هزيمة حزيران.

كتب بعد سنوات طويلة، وفي معرض موضوع آخر، لكن حزيران ليس بعيداً: «ان اوقات المحن هي التي تدفع النخبة عادة إلى إعادة النظر في كثير من المسلمات والبديهيات»[1].

(1) نُشِرَت في «السفير» عام 1995.

[21]

تحت خيمة القصدير الملتهبة التي كان يتلظى داخلها العالم العربي، من اقصاه إلى اقصاه، نتيجة هزيمة حزيران، كانت اركان الدنيا الاخرى ترتج تحت وقع الامل بالتغيير، ومحاولة اقامة عالم اكثر عدلاً واكثر انسانية.

الفيتنام تخضّ شرق آسيا كله، وهي تنازل اميركا، وتنتزع منها كل يوم موقعاً جديداً. اميركا اللاتينية، بعد هزيمة الولايات المتحدة في خليج الخنازير، تتمرد وتحاول ان تطرد اليانكي من حدائقها الخلفية. افريقيا ترسم حدودها المستقيمة بعد ان اخذت بالتحرر من الاستعمار القديم. حتى اوروبا، القارة القديمة، بدأت تتفتح فيها ازهار من التمرد الجديد: في المانيا، ايطاليا، فرنسا، واماكن اخرى أيضاً، وبدأت هذه الازهار تثير القلق والمخاوف، والتساؤل أيضاً.

والاتحاد السوفياتي والصين شعرا ان الصيغة السائدة لم تعد كافية، فحلّت في الاولى قيادة ثلاثية بعد ان سادت قيادة الفرد عقوداً طويلة متوالية. أما الصين فقد دخلت، او اقتربت من ثورتها الثقافية لتأكيد حيويتها وخطها الخاص.

في هذه الاثناء كان اسم غيفارا يتردد، مثل قصائد الحب، همساً

وبين الجموع، وكان يشعل الامل حتى في القلوب المطفأة، ويفتح الافق رحباً على احتمالات لا نهاية لها.

ولان الباهي ظل في باريس بعد الحزيران العربي، واكتوى بألمه الموجع وهو هناك، خاصة من عيون الغرباء المتسائلة والشامتة، فقد وجد ان من جملة الوسائل التي قد تنقذه: الغرق في الحياة الفرنسية، خاصة حياة اليسار الفرنسي، والبحث معه عن وجه جديد لفرنسا، ومحاولة تجديد ثورتها التي مضى عليها ما يقارب القرنين.

كانت فرنسا، ذلك الوقت، تحتشد بالمصاعب والتحديات، ورغم مهابة ديغول، والدور التاريخي الذي قام به اثناء الحرب العالمية الثانية، ثم بعد ذلك، فقد اصبح بنظر الكثيرين، خاصة الشباب، بطلاً من العصر الماضي، وعليه ان يحزم حقائبه ويمضي إلى كولومبي Colombey - les- Deux- Eglises ليقضي هناك ما تبقى له من ايام.

ومن خلال التحالف الذي قام بين الطلبة والعمال، بين الغرباء والباريسيين، بين شتّى عصب اليسار ـ وهي مزيج من القوى والاحلام ـ وأيضاً محترفي التحريض، ويلتقي جميع هؤلاء على الرفض، اندلعت احداث ايار 1968، او ما اطلق عليها ثورة الطلبة.

حين كان الباهي يستعيد ذكرى تلك الايام، كانت عيناه تمتلئان بالفرح، وتطغى على وجهه موجة من الغبطة تصل حدود النشوة.

لم يكن قائداً بارزاً في تلك الاحداث، لكن كان عنصراً فاعلاً، وربما مؤثراً. طوال فترة الثورة لم ينم ليلة واحدة في سريره، لم يكف عن الحركة والتعبئة ثم الصدام مع قوى مكافحة «الشغب». ومثلما فعل رجال الكومونة قبل مائة وعشرين سنة، فعل الباهي والذين معه.

حشد من اجل الثورة عدداً من معارفه، من اقطار المغرب وافريقيا السوداء. ساهم مع الآخرين في اقناع المترددين كي ينضموا إلى صفوف المقاومة. تضافر مع غيره من اجل اقامة المتاريس واعاقة

القوى الزاحفة. وفي الليالي، على انوار المشاعل، كان يغني مع المغنين.

لقد افترض، خلال تلك الفترة، انه لا يمكن التغلب على اوجاع حزيران الا اذا القى بنفسه في احضان ثورة تطهره من الآثار النفسية للهزيمة، ثم تهيئه للمراحل القادمة، بعد ان يكون قد تصلّب واستعاد ثقته، تماماً كما حصل معه في وقت سابق، حين انضم إلى صفوف جيش التحرير، وكان ذلك بداية انطلاقته نحو العالم الفسيح.

ورغم ان غيفارا كان بعيداً جداً عن باريس ذلك الوقت، فقد كان موجوداً بكثافة في عقول وضمائر، وأيضاً في حناجر، ثوار الكومونة الجديدة. كان الكثيرون يقتدون ليس بافكاره وحدها، بل بشكله أيضاً، ولم يتردد بعضهم في ان يتسمى باسمه!

ومع غيفارا: دوبريه، كاسترو، أراغون، بابلو نيرودا، ثم حشد من شهداء الثورات المغدورة، ومن فوضويي نهاية القرن الماضي وبداية هذا القرن، بالإضافة إلى أسباط متطرّفي العالم الذين كانوا أقرب إلى الفنانين منهم إلى الثوار.

كانت تنعقد في كل ليلة من ليالي ايار عشرات الحلقات لتمارس احلامها حول مستقبل العالم وكيف يجب ان يكون. وكان الباهي يسهم في هذه الحلقات، باعتباره احد ممثلي العالم الثالث، ومن «اصحاب السوابق» في حمل السلاح لمناوئة الاستعمار في اكثر من بلد مغاربي. كان يسهم في النقاش والحلم، وبدا كأنه اخذ يتعافى من اليأس.

لكن الكومونات عادة لا تعمر طويلاً، وسقوطها بقدر ما يولد خيبة فانه يورّث حقداً، ويشعل املاً للمستقبل، خاصة في قلوب الشباب. ولان الباهي لم يعد شاباً، شعر ان الكلمة وفي تلك الفترة بالذات اكثر جدوى من بندقية عمياء، ولذلك اعطى وقتاً اطول واهتماماً اكبر لعمله

الصحفي، فقد كان يزداد قناعةً أن «في البدء كانت الكلمة»، كما قال السيد المسيح، خاصة في وطن يزداد فيه الجهل والتجهيل سنة بعد سنة. كان يفترض بكل من يريد الاصلاح ان يبدأ من الصفر، وعليه ان يثابر ويراكم، لان عن هذا الطريق يمكن الوصول إلى المستقبل.

صحيح ان احداث 1968 انتهت دون نجاح كبير، لكنها لم تفشل أيضاً، فقد تركت بصماتها القوية على الحياة الفرنسية كلها، وادت إلى تغييرات كبيرة، كان من جملتها ان ديغول نفسه، بعد ان اعتبر الاستفتاء الذي اجراه لم يمنحه النسبة التي كان يريدها او يتوقعها، اضطر لمغادرة باريس إلى كولومبي، ليبقى هناك حتى آخر ايام حياته، والتي لم تمتد طويلاً بعد تلك الاحداث.

لقد تغير الباهي كثيراً بعد احداث 68. اصبح اكثر اقتناعاً ان الثورة تبدأ من تحت، من الناس، ولا تهبط من فوق. وان الثورة، كي تعطي ثمارها، لابد ان تكون مسلحة بالوعي، بالتنظيم، بالخبرة التاريخية، والا سيكون مصيرها ان تضمر، ثم تتآكل، إلى ان تنعزل، وما عليها بعد ذلك الا ان تنتظر السقوط، اي الموت. والتجربة خاصة في بلدان العالم الثالث، التي تفتقر إلى العديد من شروط وعناصر استمرار الثورة، وليس فقط مجرد وقوعها، اثبتت كيف قامت تلك الثورات، ثم كيف سقطت.

كلمة أخيرة...

كان يروق للباهي ان يستعيد احداث 1968، وكان يطيل وقفاته عند قادة تلك الاحداث، كيف كانوا عشية «الثورة»، كيف تكلموا، ماذا قالوا، اية شعارات رفعوا، ثم اين اصبحوا بعد عشرين عاماً من تلك الاحداث!

كان يطيل الوقوف عند اولئك القادة، وهو يردد: «اذا كان هذا حال القادة في بلد متقدم كفرنسا، فما هو حال قادة الثورات في بلدان العالم الثالث؟»

كان يقول ذلك، ويضيف لنفسه، دون ان يسمعه احد: البدايات المتناقضة، الخاطئة، الملتبسة، وهذا الكوكتيل الذي يجمعه ويوّحده الرفض فقط، لا بدّ ان يصل إلى مثل تلك النهايات، وهذا الدرس يجب استيعابه بشكل جيد قبل اطلاق اول رصاصة... والا فان الثورات ستأكل ابناءها بكل تأكيد!

[22]

تمت الاشارة سابقاً إلى بعض الملامح الصحفية للباهي، من حيث انه يكتب، اغلب الاحيان، كما يتكلم، وانه يعتمد العرض والتحليل اكثر مما يغريه الإخبار، اضافة إلى التنوع الواسع للقضايا التي يتناولها، ومحاولة تقريب بعض الموضوعات الخاصة او الجافة من اهتمام القارىء، بهدف توسيع المنظور وزيادة زوايا الرؤيا، واخيراً ربط هذا النسيج الحيّ بين قضايا المشرق والمغرب من خلال المعرفة المتبادلة، وبناء جسور من التعاون والمشاركة.

ولكي تكتمل صورة الباهي الصحفية، تجدر الاشارة أيضاً إلى مساهماته، كتابياً، في عدد غير قليل من الصحف الجديدة، تعبيراً عن الدعم من ناحية، ومراهنة على الجديد من ناحية ثانية.

فالصحف التي صدرت في المغرب والجزائر، بعد زوال الاحتلال، تدلل على حجم واهمية مشاركته منذ بداية صدور تلك الصحف. وكذلك الامر بالنسبة لعدد من الصحف التي صدرت في بيروت وباريس. اذ كان من كتّاب «السفير» منذ سنواتها الاولى، وكذلك من كتّاب مجلة «البلاغ». أما حين صدرت «اليوم السابع» في باريس فقد كتب فيها بدءاً من العدد الاول، وإلى ان توقفت. وساهم

أيضاً في مجلة «زوايا». هذا عدا عن مساهماته المتفرقة في عدد غير قليل من الصحف الاخرى.

أما مساهمته الاخيرة، او من مساهماته الاخيرة، فقد اختار لها أيضاً مجلة جديدة تصدر في اقصى بقاع الوطن، في عُمان، اذ كتب في «نزوى» آخر دراساته عن النباتات الصحراوية!

ان من جملة دوافعه لهذه المساهمات: ان يؤكد للاصدقاء انه معهم، قريب منهم، ومستعد دوماً للمشاركة. وأيضاً توقه للجديد، للشيء المرتبط بالمستقبل، اكثر من ذاك المعتمد على الماضي ويستمد منه قوته. هذا في الوقت الذي يحاول الصحفيون «الكبار» الابتعاد، وعدم الزج باسمائهم في صحف وليدة، او المراهنة على محاولات لم يتأكد رسوخها ونجاحها... ولا تدفع مقابلاً مجزياً!

ولابد من التاكيد هنا، مرة اخرى، ان الباهي رغم اعتباره من الصحفيين العرب البارزين، وكان لكتاباته تأثير هام، خاصة في المغرب، بحيث اصبحت «رسالة باريس» حين تنشر، حدثاً، وينتظرها الكثيرون بلهفة، لانها تقول لهم اشياء كثيرة وهامة، بما فيها: اين هو الباهي الآن، وفي اي مزاج هو.

رغم الاهمية التي كان يتمتع بها، فانه لم يضع كل موهبته في الصحافة، فقد كان قلقاً منقسماً، وكان منتظراً أيضاً لكي يصب موهبته كلها في الاشياء التي يعطيها اولوية على غيرها: الكتابة الابداعية، والتاريخ السياسي، خاصة للاحداث التي عاشها او كان قريباً منها، وشاهداً عليها.

ضمن هذا التوزع، وبين القلق والانتظار، ضاع منه، وضاع علينا الكثير. فالزمن تسرب اسرع مما قدر، وما قدر له الاصدقاء. وانتظار الوقت النموذجي للكتابة، والشروط التي ينبغي توفرها من اجل بدء هذه الرحلة الكبيرة، لن يتوفرا، خاصة لواحد يشبه الباهي، فالحياة غلاب، والزمن عدو قهار، والرحلة بين الميلاد والموت مليئة بالغدر

والمصاعب والتحديات، هذا عدا عن كونها بالغة القصر، وشديدة الانزلاق من بين اليدين. وهذا ما حصل بالفعل!

في نهاية هذه المحطة تجدر الاشارة، إلى امر لا يبدو ظاهراً في رحلة الباهي الصحفية، الا وهو المشورة التي كان يقدمها لكثير من الفرنسيين الذين يتصدون للكتابة عن القضايا العربية، خاصة المغربية، اذ كان يلجأ اليه الصحفيون والدارسون، للتأكد من احداث واسماء ومواقع، ولم يكن يبخل في إفادتهم عما يسألون، وكان يضيف إلى ذلك الكثير، بحيث يتحول هؤلاء من مجرد معارف إلى اصدقاء، وتصبح هذه الصداقة عاملاً في كتابةٍ اكثر موضوعية ونزاهة عن القضايا العربية.

وبغياب الباهي، لا بد ان يشعر عدد غير قليل من الفرنسيين انهم فقدوا صديقاً.

[23]

قليلون هم الذين يعرفون ان رهان الباهي في هذه الحياة: كتابة الرواية. لم يكن يتحدث عن ذلك الا نادراً، واغلب الاحيان بطريقة غير مباشرة، ودائماً بشكل سريع، غامض ومختصر.

لماذا كل هذا الهوس، هذا الاصرار على الرواية؟

قد يستطاع استنتاج الجواب، لكن دون الجزم بذلك.

فالباهي يملك تجربة غنية ومتميزة، جذرها الطفولة والصحراء. فتلك الطفولة التي كان اليتم ابرز عناوينها، وفي ذلك المكان النائي، على ضفاف نهر السينغال، وغير بعيد عن الصحراء، حين يستعيدها، بعد ان مرت عليها السنوات، وبعد ان تجول في اقاليم الارض، تبدو له متألقة، استثنائية، محرضة، وكأنه يقول لنفسه، او تقول له نفسه: كيف تسنى لك ان تواجه كل تلك الصعاب والتحديات وتبقى حياً إلى الآن؟

بعد تلك الطفولة، ذلك الشباب الجامح وما تخلله من عبور الفيافي، والمخاطرة بالحياة، إلى ان وصل إلى اول المرافىء، لكن ذلك المرفأ لم يكن يليق، او يكفي، اذ لا يزيد دوره عن اطلاق صافرة كل بضعة ايام، وكأنه يذكّر البحارة بوجوده، دون ان يكون قادراً على استقبال السفن، او ان يبعث بسفنه إلى البحار العالية. كان دور الباهي

في ذلك المرفأ ان يذيع بين فترة واخرى بياناً من اذاعة محلية لا يسمعها احد، ورغم صعوبة المكان، دكار، ذاك الوقت، فقد تسنى له بين بيان وآخر، ان يغرق في القراءة. كان في دكار لآل الزين مكتبة استقبلت الباهي ليقرأ كل محتوياتها. كان يقرأ طوال النهار وبعضاً من الليل، وهناك اكتشف عدداً كبيراً من الكتب، كوَّنت ثقافته الاولى، ولفرط اعجابه بها حفظها عن ظهر قلب. حفظ جبران ومطران، وتعقب مي زيادة في كتاباتها ثم حياتها، فانفتح عقله اكثر من قبل على الشرق.

لكن لم يطق الاقامة وقتاً طويلاً فقرر التسلل في احدى الليالي المظلمة مغادراً الميناء، وقد استطاع، بصعوبة، ان يضلل القراصنة، وان يتجاوزهم، لتبدأ اولى مراحل حياته الهامة، من خلال خياره ان يكون في جيش التحرير.

حياة من هذا النوع، حين تُروى بضمير المتكلم، تبدو خارقة، غير قابلة للتصديق، كما تُظهر المتكلم وكأنه هرقل زمانه، لذلك راود الباهي نفسه، او راودته نفسه ان تُروى هذه الحياة على شكل حكاية، وكان هذا، كاحتمال، ما جعله يفكر باللجوء إلى الرواية كاداة يستطيع من خلالها ان يروي الكثير دون ان يتهم بالنرجسية، ودون ان تعني بالضرورة حياته وحدها، اذ بمقدار ما تمثله تمثل آخرين، وتعكس حياة جيل بكامله. اضافة إلى انها تحفل بعبق المكان، وتحديات الزمن، وهموم مرحلة تاريخية، وأيضاً تسجيل تفاصيل قد لا يتاح تسجيلها بغير هذه الطريقة.

هذا جواب اول على هوس الباهي بالرواية.

أما الجواب الثاني، المحتمل، فذلك الموروث الصحراوي الذي يتلخص بان الحياة، من البدء إلى النهاية، مجرد حكاية، وهذه الحكاية لا يُعرف من راويها، ومتى بدأت، والام ستستمر.

كما ان هذه الحكاية تتحول، مرة بعد أخرى، نظراً لتعدد مصادرها، ولتعدد الرواة، ما يجعلها جديدة باستمرار، خاصة وان

الخيال جزء منها، بحيث تصبح وحدها الهدف، ومن ثم الممكنة التصديق.

هكذا قال المسنون والعرافون، رجالاً ونساء، مع الذين تحملوا العطش وقاوموا الجراد، واستطاعوا بعد ذلك ان يواصلوا الحياة، واولئك الذين تآخوا مع الجن والعفاريت، وغابوا ثم ظهروا من جديد، وغيرهم الذين سافروا إلى الاماكن البعيدة، وواجهوا في تلك الاسفار المصاعب والاخطار، وقابلوا الغول والخل الوفي. هؤلاء وغيرهم، لديهم مايروونه للآخرين، خاصة في زمن الصحراء المديد، هذا الزمن الذي يجب ان يُملأ بالحكايات والاغاني، والا اصبح وبالا مدمراً وعبئاً لايطاق، لذلك احتال انسان الصحراء على الزمن بان انشغل عنه، غافله، راوغه، لكي يمضي، وقد ظل يفعل ذلك إلى ان تنفذ الحكايا، ولا يعود هناك شيء يقال، وعندها يضطر هذا الانسان للاستسلام، مفسحاً للموت طريقاً كي يتقدم، ويأخذه إلى رحابه غير القابلة للإنتهاء!

هذا الإرث الصحراوي ينتقل من جيل إلى جيل، ولم يكن الباهي بعيداً عنه، لكن نظراً لاختلاف الزمن، وتغير الامكنة، فقد كان يهيِّىء نفسه لان يروي الكثير مما سمعه، مما عاشه، بطريقة جديدة، وليس افضل من الرواية وسيلة لما يريد ان يقوله.

وهناك احتمال ثالث لهوسه بالرواية.

ففي ظل وضع كالذي عشناه، ولا نزال نعيشه إلى الآن، قد تكون الرواية امكر الوسائل لقول الكثير، بطريقة جميلة، مما يجعلها تصل إلى عقول وقلوب الكثيرين وتحملهم، بداية، على ان يلتفتوا حواليهم ليتأكدوا، ثم ليفعلوا شيئاً بعد ذلك.

ان الخطاب السياسي، في احيان كثيرة، لا يكفي كوسيلة للاقناع، كما انه معرَّض للنقض والتهشيم من الذين يناوئونه، او من الذين لهم خطاب مختلف، بينما تأخذ الرواية صفة الحكاية، وتتظاهر بالحياد،

وربما تتناول اماكن وازماناً قد تبدو، لاول وهلة، بعيدة او مختلفة، لكن ما تكاد تنطوي آخر صفحة حتى يبدأ الانسان بمحاورة نفسه، متسائلاً، مقارناً، مستغرباً، ليصل في النهاية إلى الادانة والرفض. . . وربما إلى شيء اكثر خطراً!

من هنا تبدو الرواية سلاحاً، او على الاقل اداة خطرة، فاذا احسن استعمالها فانها تحملُ رسالة قادرة على الوصول إلى ابعد الاماكن، متخطية الحواجز وعيون الرقباء، وفتاوى القيمين على الدين والاخلاق.

هذه الطاقة التي تحملها الرواية، دون تبجح، دون مباهاة، جعلت الكثيرين يفكرون باعتمادها وسيلة للخطاب والتواصل مع الآخرين، وجعلت الكثيرين يلجأوون اليها كوسيلة لقول اشياء لا يستطيعون قولها، او لا يمكن ان تُؤدى الا بهذه الطريقة. وهذا ما كان يراود الباهي ويحرضه.

ولابد من الاشارة، أيضاً، إلى ان الباهي كان يضيق بكم كبير مما كان يُكتب، او من طريقة كتابته، خاصة في مجال الرواية المكتوبة بالفرنسية من قبل كتاب عرب. اذ كان يعتبر ان همّ هؤلاء الكتاب، او بعضهم على الاقل، تسلية الفرنسيين، لطرد الملل عنهم، وهذا ما كان يدفعهم لاختيار موضوعات يغلب عليها عنصرا الغرابة والادهاش. وهذه الموضوعات وان كان لها اساس، غير انها جزئية، جانبية، وبالتالي لا تمثّل واقع البلاد التي يكُتب عنها. وهذا ما كان يجعل الباهي متحرّقاً لقول شيء آخر.

نعم كان يريد شيئاً آخر، وبطريقة مختلفة ايضاً، اذ لا يُفترض ان يكون اسلوب القول الاوروبي هو اسلوب القول الوحيد. فالباهي المشبع بالتراث، وطريقة القول العربية، والمطلع على الاساليب الحديثة في نفس الوقت، كان يتوق للوصول إلى قول خاص جديد، وكثيراً ما اشار إلى رواية أميركا اللاتينية، وضرورة ان تكون للرواية العربية ملامحها الخاصة والمميزة.

بعد تقديم هذه التفسيرات المنطقية لحماس الباهي، الذي بلغ حد الهوس، ولاصراره على كتابة الرواية، الا يفترض ان نتساءل بطريقة عكسية؟ اي هل يجب على من يختار اداة ابداعية للتعبير ان يقدم الاسباب والحجج التي تبرر لجوءه إلى هذه الاداة، او اختياره لهذا الاسلوب؟

ان الشحرور حين يغني لا يُسأل لماذا يفعل ذلك، فقد خلق وهو يمتلك هذا الصوت. قد يصدف ان يتعلم شحرور صغير من شحرور اكبر منه انغاماً اضافية، او تجويداً لم يكن من طبعه، لكن لا يصدف ان يغني كالشحرور من لم يكن شحروراً منذ البداية! وينطبق الامر ذاته على رائحة الوردة وعرف الديك، فقد خُلقا هكذا. فاذا اضيف اليهما شيء فلكي يظهرا اكثر جمالاً واشد فتنةً.

الشاعر ولد هكذا، والروائي أيضاً. واذا كان العقل بالنسبة للانسان هو الذي يقوده ويوجهه، فان الشاعر ليصبح شاعراً فعلاً عليه ان يمتثل لارادة الادراك اكثر مما ينساق وراء الغريزة، ومعنى ذلك ان الموهبة وحدها لا تكفي، بل لكي تظهر وتعطي افضل ما تختزن لا بد من تدريبها وصقلها وتنميتها باستمرار، خلافاً للشحرور والوردة اللذين خلقا هكذا، فالاول يغني لان هذا دوره، والزهرة تتفتح لانها لا تحسن غير ذلك!

لكن، هل نحكم او نحتكم إلى الرغبات والنوايا، اذا ظلت ضمن هذه الحدود، أم علينا تجاوزها والتعامل مع نصوص، إن كانت هذه النصوص موجودة؟

يتمنى الانسان وجود روايات سرية للباهي، وقد يكون ضمن اوراقه هذا الامل. وما عدا اوراق كان قد تركها لدي في بغداد عام 1979، وهي بداية مشروع رواية لم يسمها ولم تتم، ولا ادري ان تابعها او ظلت في حدود تلك الاوراق، وأيضاً تأكيده مرات عديدة انه يواصل العمل برواية سماها «ذاكرة الرمال»، ما عدا هذين، لا اعرف ان كان

قد ترك بين اوراقه كتابات روائية.

اذا وجدت مثل هذه الكتابات، ورأت النور، فعندئذ نترك الرغبات والنوايا ونتعامل مع مادة يمكن وحدها ان تقول لنا الكثير عن هذا الحالم الكبير بالرواية، فاذا مضى دون ان تتاح له الفرصة لان يخط حروفها، فلعل حياته ذاتها هي الرواية الاكبر والأكثر غنىً، التي كتبها بجسده وروحه، ولا تحتاج الا إلى تظهير، وقد يتولى احد امرها ذات يوم، فتتبدى كم كانت هذه الحياة ـ الرواية حافلة غنية، مليئة، وجديرة بان تُروى!

[24]

الصعلكة بمعناها التاريخي، هي تلك السمة التي ميزت عصبة من الفتيان الشجعان المنذورين للخطر، الرافضين للمجتمعات التي يعيشون فيها، الرائين اكثر من غيرهم للتشويه المسيطر، حيث يحتاز الثروة عدد محدود من الناس، ويبقى الآخرون مسحوقين فقراء، مما يدفع الصعاليك إلى التدخل، وبالقوة، ووضع اليد على جزء من اموال الاغنياء وتوزيعها على المحتاجين، عازفين هم عن ان يخصوا انفسهم بشيء، لان الثروة، بنظرهم، لا تعني اكثر من تلبية الحاجات الضرورية للانسان.

ولذلك فان الصعلكة ليست سرقة بهدف السرقة، وليست جمعاً للثروة، او تعدياً على الآخرين، وانما هي نظرة وموقف، وأيضاً سلوك من نمط معين.

ورغم تبدل معنى الصعلكة بحكم تراتبية المجتمع وقيمه، وحسب الفترات التاريخية، وتبعاً لقوة الاغنياء، حتى لتبدو الصعلكة بنظر البعض صفة سلبية، وقد تصل إلى حدود اعتبارها شتيمة، الا ان الجوهر الحقيقي لها ظل مفهوماً، وفي احيان كثيرة مؤثراً.

أما اولئك الفتيان الذين ملأوا جزءاً من تاريخ الجاهلية ثم صدر الاسلام بغزواتهم النبيلة، وتضحياتهم التي لا تنتظر رداً او اعترافاً،

وقالوا، من حيث الفعل والسلوك، موقفاً مدوياً وهم يأخذون من جانب ويعطون إلى جانب، ويعيدون توزيع الخيرات كما يتوزع نور الشمس، وكما ينتشر الهواء، وبعد ان يفعلوا ما يجعلهم راضين، يعودون إلى بعض الواحات، مع كسر الخبز وبقايا التمر، كي يتأملوا الحياة، ثم ليقولوها شعراً، بحيث اصبح هذا الشعر من اصدق ما قالته العرب، يتناقله الناس عصراً بعد عصر، حتى اذا احسوا، مرة بعد اخرى، ان الثروة اختل توازنها، امتطوا صهوات جيادهم، وغاروا هنا، وغاروا هناك، وعلى الاغنياء تحديداً، ووزعوا ما حصلوا عليه لمستحقيه.

ظل الصعاليك وظل شعرهم منارات مضيئة، وحديقة للضمير، وعنواناً لنمط من الحياة والتفكير قلما يوجد ما يماثله في الاماكن الاخرى.

لكن الاغنياء لا يمتلكون المال وحده، يملكون معه، ومن خلاله، القوة والنفوذ، وبالتالي القدرة على اعادة صياغة القيم والمفاهيم. وهكذا دفعوا إلى الخلف، وحجزوا وراء ظل كثيف، الصعلكة كقيمة وكمفهوم، ثم طاردوا الصعاليك واصطادوهم واحداً واحداً، او أخرسوهم، فكادت تتلاشى الصعلكة، وكاد يندثر الصعاليك.

في العصر الحديث، بعد منتصف الخمسينات، انتبه عدد من المثقفين إلى بعض ما يزخر به التاريخ العربي من افكار وحركات وقيم، وكان من بين ما استخرجوه من هذا التاريخ: الصعلكة، شعراً وموقفاً وسلوكاً. فنفضوا طبقات الغبار السميكة، وازالوا الصدأ والنسيان عن هؤلاء الشعراء ومواقعهم، واعادوا لهم الاعتبار، وعاد شعرهم للتداول، واصبحت اسماء بعضهم كالشهب.

رحلة طويلة وشاقة، لا يمكن الجزم ما اذا كانت بداية الرحلة من دمشق او من بغداد، او ربما من اماكن اخرى، كالقاهرة وبيروت. فالصعلكة اكتشاف وليست اختراعاً، ولذلك يحتمل ان

تكون قوافل هذه الرحلة قد انطلقت من اماكن عديدة في وقت واحد او في اوقات متقاربة، بحيث بدت الظاهرة موجودة، او ممكنة الوجود، وبسهولة، في دمشق وبغداد وبيروت والقاهرة في آن واحد، وكانت جاهزة لان تعبر البحر إلى الضفة الاخرى من المتوسط، لتصبح باريس احدى مستوطناتها، وربما اهم هذه المستوطنات.

ففي مقهى الهافانا بدمشق يلتئم، كفقراء الهنود، عدد من الافراد، الشعراء واصدقاء الشعر، لتأسيس اولى خلايا الصعاليك. يفعلون ذلك وهم يرددون اشعار الذين سبقوهم، وما ان يتردد صدى تلك الاشعار في المقهى المقابل، مقهى البرازيل، حتى يأتي الدعم والتأييد من الطليعة ومن القاعدة!

ولان الصعلكة ليست موقفاً نظرياً، اي الشفقة على الفقراء، وانما حياة تعاش، بما فيها التمرد على ما هو سائد، وكسر رتابة القيم الاجتماعية، واغناء الحياة بالفكر والندامة والشعر، لذلك غلب هذا الجانب على صعلكة الشام وما جاورها من دساكر. أما صعلكة بغداد فاخذت وجهاً اكثر قتامة: حركة في النهار وتبتل في الليل.

وبين النهار والليل هذا الهمس الخائف في مقهى «الدفاع»، والاكثر جرأة في «الآداب»، وقد يمتد احياناً إلى «حسن العجمي» و «الزهاوي»، وقد يتدروش الهمس قليلاً او يصخب، او يصبح هذياناً، ليتحول عند الغروب وبعده في مقهى «ياسين» إلى تهجد يعرف البدايات، لكنه لا ينتهي. وبين دخول الليل بالنهار، السياسة بالصوفية، باحلام وردية واخرى شديدة القتام، تأخذ الصعلكة ملامحها.

واذا كانت «عروة» الصعاليك معقودة للتوافق لا للاتفاق، وتتغير بين يوم وآخر في دمشق، تبعاً لعلاقة الصعاليك ببعضهم، وضرورة عدم وجود اي خلاف حول بيت من الشعر او الاعتراف بجمال فتاة،

فان «عروة» بغداد بيعة لا رجعة فيها، وان شابها الهمس، وبعض الاحيان الاختلاف، والتعريض، واحتمال الانقلاب، خاصة حين تنشأ فرقة جديدة او يظهر اجتهاد جديد!

ولانه ليس للصعاليك امير او صاحب حظوة او ذو سلطان، وانما لهم بوصلة والحادي والهادي، فالعادة ان يُبايع من يستحقها، وتظل كذلك إلى ان يعتزل او تحول الازمان وتتغير الايام، ويأتي من هو اولى، او اكثر فتوة واشد حماسة، لان الصعلكة، منذ البدء، اختيار، والانضمام اليها او النكول عنها يرتبط بالصعلوك ذاته، لذلك فان الدائرة تتسع او تضيق تبعاً لكل الاعتبارات، وقد تنتهي في بعض الاحيان.

فرقة بغداد للصعلكة ظلت الاكثر حضوراً ونفوذاً، لكن الاجواء السياسية التي توالت تعصف بالعراق فترة بعد اخرى طشّرت الكثيرين، اذ حملت عدداً إلى القاهرة، فالتقى هؤلاء بامثالهم، وتكوّن ما يمكن ان يطلق عليه بجدارة: الفرع العربي للصعلكة، وهنا، بالتحديد، يأتي دور الباهي.

فعن طريق بعض المغاربة، وهم في رحلتهم إلى المغرب او عائدين منه، ولان محطة باريس اجبارية في الذهاب او الاياب، كان لا بدَّ لقافلة من القوافل الكثيرة التي تذهب وتعود ان تلتقي بالباهي او ان يلتقي بها.

أما بعد ان ضمرت حركة الصعلكة في المشرق وتراجعت، فقد كان للفرع الباريسي فضل القيادة وان يصبح في الطليعة، وكان الـ«عروة» في اغلب المراحل، ولم يتعرض لمحاولات الانقلاب او الاعتزال: الباهي، مختار باريس الدائم!

صحيح انه اكتسب الكثير من تجربة المشرق، بعد ان استوعبها، والمَّ بتاريخها، وبما حلّ بافرادها، خاصة اولئك الطامحين إلى السلطة، والذين تغيرت مواقعهم الاجتماعية، بعد ان تغيرت قناعاتهم

ومواقفهم السياسية، وكانت الضرورة تقضي برد الاعتبار لهذه الحركة، وهكذا تصدى هذا الفارس لحمل الراية حين انتكست او سقطت في المشرق، وكأنه يعيد جزءاً من تاريخ سابق، حين لجأ عبد الرحمن الداخل إلى الاندلس، لتبدأ مرحلة جديدة.

الباهي والصعلكة، اذن، تاريخ حافل بالمحطات والوقائع والرؤى، ولابد ان يأتي اليوم الذي يدوَّن فيه هذا التاريخ، خاصة وان باريس هي اكثر الاماكن ملاءمة لمثل هذه الحركات. اذ يمكن فيها ان تمارس الطقوس وتعلن القناعات ويبشر بالفكر الجديد، دون خوف او خشية من المنافسين، ففيها يمكن ان يقال ويكتب كل شيء، وفيها يمكن ان يمارس ما يقال، بحيث يصبح سلوكاً في اللباس والمأكل، وفي اعلان المواقف، وفي تحديد العلاقات.

لم تكن الصعلكة للباهي بدعة او امراً إدّاً، كانت تلبية لما يعتلج في داخله، استجابة لهذا الطوفان الذي شكّل فكره ووجدانه، وكانت التعبير الاكثر دلالة عما يريده ويتمناه. لذلك من الصعب تصنيف الصعلكة الباريسية كامتداد لاحدى الفرق الشرقية، او كتقليد لمدرسة او شخص. انها كيان بذاتها، نسيج خاص بها، كونتها، بداية، الصحراء، ثم اضافت اليها: الاسفار، الاحتكاك، القناعات الجديدة، وتلك المساحة من الحرية المتاحة التي تمكّن من قول او فعل اشياء لا يمكن ان تمارس في الوطن المليء بالقيود والمحرمات.

قد يُزعم ان في باريس آلافاً كالباهي، في المظهر وفي بعض التصرفات، وقد يقال ان المدينة الكبيرة تترك هامشاً واسعاً لاولئك الذين يريدون ان يبدوا مختلفين، حيث يحلو لكل انسان ان يفعل ما يشاء. وقد يقال أيضاً ان الانسان حين يفلس في السياسة او الحب يلجأ إلى وسائل تعويض لا تخلو من غرابة، يفعل ذلك كطريقة للتحدي، او للانتقال إلى الضفة الاخرى!

لكن ما يبدو اكثر اهمية، في هذا الموضوع، ان الدافع الاساسي

للصعلكة هو هذا الحس التراجيدي باختلال القيم والمقاييس، واتساع الفروق بين الكلمة التي تقال والسلوك الفعلي الذي يمارسه الانسان وان بشكلٍ سري. ثم انعدام الثقة، او تراجعها، بالاشكال التنظيمية، والتي اصبحت مثل الهياكل العظمية الفاقدة للروح والفعالية. وأيضاً تحول الانسان المعاصر إلى اداة للقتل والاستغلال ثم يصبح هو ذاته فريسة لقتلٍ مقابل ولاستغلال اكبر، في ظل مجتمع مثقل وحائر، بليد الحركة ومنقاد بشكل اعمى إلى قوى خفية تسيره وتملي عليه كيف يجب ان يفكر، ان يتصرف، ومتى عليه ان يفعل او ان يمتنع عن الفعل.

في مواجهة عالم بهذه القسوة، وبهذه البلادة، ولعدم القدرة والرغبة في الانضمام إلى هذه الحالة القطيعية، وعدم القدرة على السكوت او الاحتمال، وتالياً فقدان التكيف والانسجام، لا بدَّ ان يؤدي ذلك كله إلى الانفصال عن الكتلة ـ المجتمع، ومحاولة تأمل وقراءة هذه الحالة، ثم لومها، واخيراً معاداتها. وأيضاً ادانة الارادة الرخوة التي تجعل الناس يقبلون ان يتحولوا إلى كائنات متشابهة، تماماً مثل قطع النقود. ان العزلة ثم التمرد، واخيراً اعلان هذا الموقف المتمرد والرافض، يولِّد اشكالاً عديدة من التعبير الفردي والجماعي.

انها الحالة ذاتها تتكرر بشكل متزايد، خاصة في المجتمعات الصناعية، وتحديداً في المدن الكبيرة، وتأخذ الحالة تعبيرات واسعة الطيف، بدءاً من طريقة اللباس وانتهاء بالوصية المتعلقة بطريقة الدفن.

أما حين يقترن الرفض بالفن فعندئذٍ ينبثق فن يعبِّر عن نفسه بأشكال قد لا ترضي الذوق السائد، ولا تلاقي القبول السهل، حتى من الذين يرحبون، عادة، بالجديد والمختلف، لانه تجاوز واختراق للمألوف وللمقاييس، فعندئذٍ تبدأ حرب من نوع جديد.

فاذا ترافق الرفض بالفن بالسياسة فتصبح الامور اكثر تعقيداً، وربما خطراً، لان المسألة، في هذه الحالة، تتجاوز الأنا إلى الآخر، وبالتالي

يعتبر ما هو مطلوب من النفس مطلوباً من الآخر، مما يجعل الصراع غير مقتصر على الخصم، بل ويمتد إلى الحليف المحتمل والمرغوب، ومن شأن ذلك ان يغيِّر في النظرة، ثم في العلاقة بين اطراف او مواقف كان يفترض ان تنسجم وتتكامل.

في مواجهة هذا المأزق، خاصة في ظل عدم تناسب القوى والقناعات والمواقف، يبرز، اكثر من قبل، الحل الفردي، المفتوح مواربة على آخر، وهذا الآخر بمقدار ما هو معلوم فانه مجهول في نفس الوقت، لان ما قد يجمع او يفرّق لا يزال مجهولاً او غير محدد، والعادة ان لا يتم تحديده الا من خلال السلوك.

الصعلوك، عادة، لا يحاول اقناع الآخرين، نظرياً، او من خلال الكلمات، وانما يقدم نفسه نموذجاً ومن خلال السلوك تحديداً، وعلى الآخرين ان يقرروا الرفض او القبول. وحتى الرفض او القبول لا يأخذان شكلاً واحداً، ولا يتكونان دفعة واحدة، اذ يصادف ان تتجزأ المواقف والحالات تبعاً لاعتبارات لا عدد لها، وغير قابلة للتحديد سلفاً. كما حالة الرفض او القبول قابلة للمد والجزر باستمرار، لان ما قد يرفض الآن، او ما قد يقبل، ربما املت رفضه او قبوله لحظة او عامل طارىء، الامر الذي يشير إلى مجرد مناخ او إلى احتمال، سلباً او ايجاباً، دون ان يكون قرينة كاملة او نهائية.

[25]

من نقاط ضعف الباهي: الكتاب.

حين يرى كتاباً جديداً يصاب بحالة من التوتر، ويظل كذلك إلى ان يحسم الامر: إمّا بالحصول عليه، او اعتباره لا يعنيه، وعندها يهدأ ويزول التوتر.

فاذا اتبعنا الطريقة الاميركية في الحساب، وجزأنا حياة الانسان إلى وحدات زمنية، واعتبرنا ان الباهي قضى نصف عمره في المقهى، فان جزءاً آخر لا يستهان به من هذا العمر انقضى بين المكتبات.

كان يروق له ان يمضي وقتاً غير قصير، ويومياً، في مكتبات الحي اللاتيني. حتى لتمكن المراهنة بان من يفتقده في احد مقاهي الحي لا بدّ ان يجده في احدى المكتبات هناك!

ورحلاته اليومية إلى المكتبات لا تقتصر على الكبيرة والمشهورة منها، اذ غالباً ما يتجاوزها إلى مكتبات لا يكتشفها الا ساحر «مغربي». كان يدخل إلى تلك المكتبات عبر دهاليز طويلة، عبر كراجات، وقد يلتفُّ اكثر من مرة في الممرات المتداخلة من اجل الوصول اليها، لانها تحت ادراج بناية، او في احد الاقبية!

ولعل ادق وصف لهذه المكتبات ولاصحابها، انها تشبه مخازن ورّاقي العصور الوسطى. فهذا النمط من المكتبات لا يعرف محتوياتها

الا اصحابها، اذ تتعاطى تجارة الكتب القديمة، وبعض الاحيان، النادرة، بيعاً وشراء. وغالباً ما يُعثر فيها على كتب لا توجد في مكان آخر. الاسعار فيها رخيصة، ويقبل بعض الوراقين التعامل بالتقسيط، كما يُلفتون النظر إلى «الجديد» الذي حصلوا عليه. يوافقون على بذل اقصى جهد من اجل تأمين كتب يُوصّون عليها. يعرضون الكتب تبعاً لنوعية الزبون ومعرفتهم به، اذ يملك اغلبهم فراسة لا تخطىء حول الذين يصلون اول مرة، وما اذا سيصبحون رواداً دائمين ام انهم طيور عابرة!

هذا النمط من الوراقين، رغم كثرتهم وتوزعهم، اناس خشنو المراس، صامتون اغلب الاحيان، لا ينفكون عن القراءة حتى اثناء وجود الزبائن. لهم مزاج خاص في التعامل وفي تلبية الطلبات، إمّا سلبيون بحيث لا يكلفون انفسهم عناء، بحيث لا يجيبون على الاسئلة الا باحدى كلمتين: نعم ولا، ويعودون إلى ما كانوا فيه، او: يفيضون بالحديث إلى درجة الثرثرة، ويسرفون في تقديم الاقتراحات وعرض الكتب، بحيث لا يمكن لمن يدخل الخروج الا وقد تورط بشراء كتب لم يفكر بشرائها من قبل!

ويختلف هؤلاء الوراقون عن اصحاب المكتبات الكبيرة والحديثة، ويختلفون أيضاً عن اصحاب تلك الصناديق، والتي تشبه التوابيت، المنتشرين على اطراف السين. لم يكن الباهي يحفل بوراقي السين، يعتبرهم جزءاً من الفلكلور الباريسي لجلب المزيد من السواح، وايضاً لاستغفال بعض الغرباء الذين لا يعترفون ابداً انهم خُدعوا، حين يقبلون على شراء نسخ من صور مشهورة باثمان غالية، فقط ليؤكدوا لمعارفهم البعيدين في وقت لاحق انهم لم يتركوا زاوية من باريس الا ورأوها، والدليل: هذه الهدايا من نسخ الصور، اضافة إلى البطاقات البريدية التي أرسلت من باريس، والتي تم شراؤها من اصحاب المكتبات الصغيرة المنتشرة على ضفاف السين!

أما المكتبات الكبرى، وعادة تكون مؤلفة من عدة طبقات، ويرتادها الآلاف يومياً، فكان الباهي يقضي فيها وقتاً غير قصير من اجل سرقة المعارف، وليس سرقة الكتب، كما هي عادة بعض المتشردين، بمن فيهم بعض المتشردين العرب.

في هذه المكتبات يمكن للانسان ان يقضي الوقت الذي يشاء كي يقلّب اي كتاب، وللفترة التي تروق له، دون اي ازعاج. وفي تلك المكتبات كان الباهي يتعرف على الكتب حديثة الصدور، موضوعاتها، اهميتها، سعرها، وما اذا كانت مدرجة على جدول اهتماماته خلال بضعة العقود القادمة! كي يقرر ما اذا كان عليه شراؤها الآن او في وقت لاحق!

واذا كان لكل انسان بعض الملامح والعادات التي تميزه عن غيره، وتجعله مختلفاً، فان ما يميز الباهي: اكياس البلاستيك التي ترافقه، وغالباً ما تكون محشوة بالكتب والمجلات!

يخرج من البيت، صباحاً، بكتاب او مجلة، ليكون رفيقه في المترو، مثل عادة اغلب الباريسيين. ويعود إلى البيت، مساء، وهو ينوء تحت ثقل الاكياس البلاستيكية التي تراكمت خلال النهار: مجلات وكتب تصله من دور نشر، كي يعرضها او يشير اليها في رسائله الصحفية؛ كتب جمعها له الوراقون، ويكون قد اوصى عليها من قبل او عرف الوراقون اهتماماته والموضوعات التي يتابعها، وهيأوها له؛ كتب جاءته من اصدقاء او عبر البريد، وهكذا تكون حصيلة كل يوم مقداراً جديداً من الكتب!

عرفت اثنين، غير الباهي، مهووسين بالكتب إلى درجة لا ترحم: ماجد السامرائي ونوئيل عبد الاحد، وقد حوّل الثلاثة بيوتهم إلى مخازن لكتب من كل نوع، من كل عصر، ومن كل مكان ايضاً! واذا كان السامرائي وعبد الاحد قد تعاملا مع اغلب ما لديهم من كتب،

فان الباهي تعامل مع الاقل منها، ليقينه انه سيكون لديه من الوقت، مستقبلاً، ما يجعله يؤجلها الآن، دون اي شعور بالذنب. «سيأتي وقتها، ساتفرغ لها، لان الكتابة عن بعض الموضوعات تقتضي ان أكون متفرغاً، صافي البال، وغير ملاحق بهموم الحياة اليومية الصغيرة». وعندها سيشرع في رحلته الكبرى، وسيبدأ الكتابة التي يريد!

لا يعني ذلك ان الباهي كان يجمع الكتب ولا يقرأها، فالأقرب إلى الدقة ان قراءته لا تتناسب مع حجم ما لديه من كتب، من ناحية، وانصرافه، بعض الاحيان، إلى قراءات محددة، وكأنه يهيِّىء رسالة جامعية من ناحية ثانية. فحين اراد ان يكتب عن باريس، الوجه الآخر، اواسط الثمانينات، جمع لهذه الرحلة عشرات او ربما المئات من الكتب عن باريس، كما اتصل بعدد كبير من المتخصصين ليستكمل المعلومات حول مجرى السين ونوعية التربة وكيف ابتدأت المدينة، ثم كيف اتسعت، إلى تحديد مداخل انفاق باريس من اجل الوصول إلى اعماقها، ثم المغامرة والنزول إلى هذه الاعماق فعلاً، وتلك الساعات الكثيفة، المخيفة، والحافلة أيضاً، التي قضاها في الاعماق البعيدة. كل ذلك في محاولة لمعرفةٍ ادق لتاريخ المدينة ومعمارها ومياهها ونوعية النباتات الاكثر ملاءمة لتربتها وطقسها!

وحين تعنُّ على باله الصحراء، ويشفّه اليها الحنين، لا يكتفي بما يتذكره عنها، وانما ينصرف بكليته لقراءة كل ما يتعلق بالصحاري، متى تكونت واين ولماذا. وفي هذه الرحلة الشاقة الطويلة يضيف إلى ما عرفه معلومات جديدة، مقارناً بين صحراء واخرى، بين نبات وآخر، ويسجل الملاحظات اولاً، ثم يبدأ، ليس في الكتابة، وانما في امتحان المعلومات من خلال عرضها شفوياً اكثر من مرة، وعلى اكثر من مستوى، ليمتحن في هذه المرحلة كيف يجب ان يشاد البناء، كيف يجب ان يعالج الموضوع!

وبمقدار براعة الباهي في الكتابة حول موضوعات متعددة، فان تلك الثقافة الشفوية التي كانت نواتها من الصحراء، ومنذ الصغر، تظهر مجدداً فيملأ جو الحديث بالموضوع الذي يشغله، وبمقدار ما يلمس الاهتمام في العيون، والدهشة في الوجوه، يجود ويستطرد، حتى اذا تأكد ان موضوعه جدير بأن يُكتب كتبه، وكان حلقة في سلسلة لا تلبث ان تتماسك وتترابط، حتى ليحار الانسان، وهو يقرأ، هل ان ما يكتبه عن الصحراء، عن النبات، يعني الصحراء والنبات وحدهما ويقتصر عليهما فقط أم انه يعني شيئاً اخطر وابعد؟

فاذا أَجّلْنا الحديث عما كان ينوي الباهي كتابته في قادم الايام، واكتفينا بما كان يحشد له من المصادر، وكيف انه لا يتعب من التحضير والتفكير في ذلك، لقدَّرنا ان الرجل بحاجة إلى مجموعة حيوات، لا حياة واحدة، لانجاز بعض، لا كل، ما يفكر ويحلم به! ولاستنتجنا أيضاً ان هناك عدداً كبيراً من الموضوعات كان بحاجة إلى الالتفات والاهتمام، وحين لم يجد من يفعل ذلك، او لا يفعله بالشكل المطلوب، نذر نفسه، نظرياً، لاداء هذه المهمة! مع التأكيد ان مهاماً من هذا النوع، لكي تنجز، تحتاج إلى فرق عمل، إلى مراكز ابحاث، إلى جهد مخطط ومنظم يستمر لفترة غير قصيرة، وربما، لو كانت الظروف مواتية، لاصبح الباهي جزءاً من هذا العمل، وربما، تقديراً، ترك بصمات اقوى في التفكير، وفي ترتيب الاولويات.

حين يعنُّ على باله عالم الحيوان، ويقضي شهوراً متواصلة وقد سيطر عليه هذا العالم بغرائبه واعاجيبه، وكي لا يبقى اسير معلومات الغربيين، يصاب بهوس من اجل الحصول وتأمين ما كتبه العرب القدامى حول هذا العالم. ليس ذلك فقط، بل ولتأكيد ان العرب سبقوا الكثيرين وقدّموا معلومات هامة عن عالم الحيوان.

ولان له ذاكرة قوية، حافظة، يستطيع ان يستعيد ما كتبه الجاحظ عن الكلاب والديكة وبنات آوى، وفي هذه الاستعادة تستوقفه محطات

معينة طريفة فيقف فيها او عندها طويلاً، وقد يتحول الموضوع، بعض الاحيان، إلى دعابات.

واذا كان الكثيرون يوصون المسافرين لجلب الملابس والحلويات والاحذية، فان وصية الباهي، اذا سئل: الكتب. ويقدم معلومات كاملة عن الكتاب الذي يريد: اين طبع، سنة طبعه، عدا اسم الكتاب والمؤلف. ولا يكتفي بهذه التوصية شفوياً، يكتبها بحروف هي مزيج من الخطوط المشرقية والمغربية معاً على فرخ ورق كبير، كي لا يبقى لمن يُوصّى اي عذر!

اتذكر انه اوصى رياض رعد على بعض الكتب التراثية ليجلبها له من بيروت. حين اصبحت الكتب بين يديه كان فرحاً إلى درجة لم يُشاهد هكذا الا نادراً.

وأتذكر، في احدى زياراتي إلى المغرب، اوصاني على نسختين من «الروض العاطر»، طبعة فاس، واحدة له، والاخرى لاحتفظ بها لنفسي! ووصف لي في اي مكتبات بفاس يمكن ان اعثر عليها، وكأنه وضع النسخ هناك بنفسه!

ومرة اخرى في زيارة لتونس اوصاني على: كتاب «المختار من قطب السرور في اوصاف الانبذة والخمور» لإبراهيم بن القاسم الرقيق القيرواني، من القرن الخامس الهجري، كما طلب كتاب مائة ليلة وليلة، ومقامات الورعي.

ان شهوة الباهي للمعرفة، وفي حقول متعددة، وبعض الاحيان شديدة التباين، كانت بلا حدود. ورغبته المؤجلة للكتابة، وبعد ان يستكمل الشروط، كانت جامحة إلى درجة يتصور الانسان ان ما يريد ان يفعله كان شديد الوضوح، دقيقاً، كاملاً، كل ما يحتاجه ان يجلس وراء الطاولة ليبدأ العمل! فاذا لم يحصل هذا اليوم فغداً، والغد امامه ممتد واسع بلا حدود!

وفي اطار التعلق بالكتاب يجدر تسجيل الملاحظتين التاليتين:

الاولى: كان الباهي مرجعاً محلّفاً، اذا صح التعبير، في تسمية المصادر التي يمكن اعتمادها في الكثير من الموضوعات، وكان يرجع اليه عدد غير قليل من الاصدقاء، بمن فيهم فرنسيون، من اجل معرفة هذه المصادر، وكان لا يبخل في تقديم المعلومات والملاحظات.

أما الملاحظة الثانية فهي ان الباهي، على وفرة ما لديه من مصادر، كان حريصاً على حمايتها، ضنيناً باعارتها، وما كان يدخل صناديقه ـ اذ لم تكن لديه مكتبة منظمة ـ لا يخرج منها، فكل داخل اليها مفقود، بحيث يصبح عسيراً، حتى على الباهي نفسه، ان يصل إلى الكثير من الكتب بسهولة او مرة أخرى، لكنه كان، في نفس الوقت، يمتلىء املاً في ان يستخرج هذه الكتب، ويعرضها للنور ذات يوم، ليشرع في الرحلة الكبرى!

ويمكن القول اخيراً، في هذا الموضوع تحديداً، ان ما لدى الباهي من المصادر عن مدينة باريس، وعن الصحاري، وربما عن الحشرات، ما يعتبر اهم مكتبة في هذه المجالات، اذا انتقلت إلى المغرب.

[26]

رغم وجود بطاقة المترو الشهرية في جيبه، كان الباهي يؤثر المشي. كان احد كبار المشائين في باريس، فقد تعود ان ينتقل من مكان إلى آخر، رغم بعد المسافة، على قدميه، خاصة اذا كان الطقس مواتياً.

هذه الطريقة في الانتقال جعلته اكثر دراية بتفاصيل المدينة، واكثر معرفة بأسرارها، اضافة إلى ان وجوده بين البشر، وعلى هذه المسافة القريبة، يجعله اكثر قدرة على التقاط النبض الحي للمدينة، وادراك هموم الناس وافراحهم دون وسيط.

كان يفضل، في مشاويره اليومية، ان يكون وحيداً، ربما بفضول الصحفي الذي يبحث عن جديد، وقد يكون دافعه تأمل المدينة باحيائها وضوضائها، بمعمارها وجسورها، وأيضاً مراقبة تغيرها خلال ساعات النهار، خلال الفصول، والتمعن بهؤلاء الفلاسفة، الكلوشار، الذين يشكلون احد معالم باريس، والمنتشرين في محطات المترو، او على كراسي الارصفة القريبة، والانصات إلى ما يقولونه لانفسهم او لبعضهم، دون الالتفات إلى الكتل البشرية التي تعبر من حولهم، وغالباً لا يحس فريق بآخر.

في هذه المشاوير الدؤوبة كان الباهي يلتقط الكثير، ومثل

المخلوقات المجترة، كان يدفع ما يلتقطه إلى اعماقه علّه يستعيده مرة اخرى، في وقت ما، ويسجله في مقال، او في فصل من رواية! كان يمشي ويتوقف عند هذا الوعد، خاصة وأن باريس ليست مجرد مدينة، وانما مجموعة مدن، ان لم نقل مجموعة قارات! اذ تختلف من مكان إلى آخر، من وقت إلى آخر، اختلافاً بيناً، وكأنّها ليست هي نفسها.

حين تكل قدماه من المشي، او يكون على موعد، يأتي عندئذ دور المترو. والمترو، بالنسبة له، وبالنسبة لكثيرين أيضاً، عالم حافل مشوق ومثير: الإزدحام، الرائحة، وهي مزيج من رائحة البشر والرطوبة، مراقبة الناس، الموسيقى الصاخبة او الحزينة، الانتظار والسرعة الحمقاء، عالم البشر الضائعين والحزانى الذين لا يرفعون اعينهم عن الارصفة علهم يجدون شيئاً ضائعاً او متروكاً، حتى لو كان عقب سيجارة.

عالم المترو زاخر متنوع إلى درجة يتطلب دراسة واسعة لم يكن اقدر من الباهي على القيام بها!

يتبدل هذا العالم مع ساعات الليل والنهار، يتبدل حين الانتقال من محطة إلى اخرى، من حي إلى آخر، وهذا التبدل يطال الملامح والالوان، ملامح البشر، الوانهم، اشكالهم، امزجتهم، ملابسهم، وشعر رؤوسهم، بحيث يستطيع الانسان، دون عناء، ان يقدر طبيعة الحي الذي يمر تحته دون ان يراه.

حتى الحي ذاته يتبدل تبعاً لساعات النهار. فاذا كان الخدم والعمال اول من ينزلقون إلى المترو في ساعات الصباح الاولى، ثم يتبعهم الموظفون والمستخدمون، فان السادة، والمتقاعدين، وربات البيوت المسنات الذاهبات إلى الحدائق، والمتبطلين، وعدداً لا يستهان به من التائهين الذين ضلوا طريقهم او اخطأوا اهداف حياتهم، ان هؤلاء ينزلقون إلى المترو عند الضحى، مما يعني ان الحياة في الاعالي اصبحت اقل ازدحاماً، واكثر استقراراً.

واذا كان من المهم، والطريف، معاً، ان يتأمل الانسان الملامح المتعبة في الصباح الباكر، ويكتشف آثار النوم عليها، فان تأمل الوجوه في ساعات الضحى اكثر طرافة واقل اهمية. فالملابس تبدو اكثر استقراراً على الاجساد التي اتبعها العمر، ومكياج السيدات يبدو سميكاً نابياً، وكأن الانسان امام دمى، أما العيون الفضولية، التي ترقب الركاب الآخرين بكثير من الدقة والحرص، فانها تحمل بالاضافة إلى ذلك معنى الريبة والخوف.

كان يروق للباهي التنبيه لهذه الكائنات، ويشير إلى الاحياء التي غادرتها و«الروايات» التي خرجت منها: لون الملابس، ربطات العنق، الدبابيس الماسية المعلقة بقبعات المسنات، تصفيف الشعر النسائي والرجالي، وعشرات التفاصيل الاخرى التي لا تحتاج الا إلى رسامين، وبنسبة اقل، إلى كتاب، كي ينقلوا النبض الحي للمدينة في هذه الساعات من النهار، من خلال المشاهد والوجوه المصلوبة امامهم!

في محطات المترو كان يقضي وقتاً يرقب الغادين والآتين، وعلى صفحات الذاكرة يدوّن الاشكال والملامح والتصرفات. فاذا استقر على احد مقاعد الدرجة الثانية، كانت تتركز انظاره، بدرجة اساسية، على الجرائد التي تُستخرج لمغالبة الزمن وعيون الفضوليين.

كان يقول بنوع من الظفر، ويريد لمن يسمعه ان يشاركه: اكثر ما يتغير في المترو، وعلى مدار ساعات النهار، الجرائد. تبدأ في الصباح الباكر يسارية، ثم تميل تدريجياً نحو اليمين، لتبلغ اقصى اليمين عند ساعات الضحى، ثم تعود نحو الاعتدال والعقلانية حين تصدر اللوموند ظهراً لتعود وتختلط مرة اخرى في قطارات مترو المساء!

واذا كان المترو يعكس حياة المدينة وناسها خلال ساعات الليل والنهار، فانه يعكس اكثر حياة الاجانب، خاصة الفقراء او محدودي الدخل.

ففي هذه الانفاق، الممتدة كالحيات، يلتقي الغرباء الباحثون عن

فرص العمل، والمخبرون والموسيقيون. كما يتم في هذه الانفاق استلام المخدرات او بيعها، وتلعب الايدي الخفيفة لتؤمن خبز يومها او لتثبت مهارتها. فسرعة الحركة، وتغير البشر، وهدير القاطرات التي تدخل وتخرج بجنون، والموسيقى التي تصدح دون ان يسمعها احد، هذه الاجواء تحوّل الانفاق إلى عالم سري مليء بالحركة والريبة والمفاجآت. وليس اكثر من هذا «العالم» ما هو جدير بالمراقبة والاثارة، وانتظار الغريب فيه أو منه، الامر الذي يجعل الباهي شديد الاحتفال بعالم الانفاق، شديد الفضول لما يحدث فيه.

ومع ان بطاقة المترو تخوّله استعمال الباصات أيضاً، الا انه لم يكن يفضّل ركوبها، ما عدا الحالات الضرورية، كما هو الحال في نهاية خطوط المترو، او في حال عدم وجود غيرها. كان يعتبر ركوب الباصات ومراقبة الحياة والبشر من خلالها، كمن يذهب إلى حديقة الحيوانات مفترضاً ان الحديقة تشبه الغابة البرية. فالحياة من الباص تبدو رمزية، سريعة، ومختصرة، ولذلك كان يؤثر قدميه عن ان يحشر نفسه في هذه العلبة الحديدية، كما كان يقول ساخراً.

في حالات الضرورة القصوى، وهي اجمالاً قليلة، حين كان يضطر لاستعمال التاكسي، كان لديه قابلية استثنائية، وخلال الدقائق الاولى، لان يفتح حديثاً، لا يلبث ان يصبح حميماً، مع السائق، حتى لو كان من السواق الفرنسيين، المتعالين، خاصة ازاء الملونين! كان قادراً على التواصل حتى مع هؤلاء! أما السواق من اصول غير فرنسية، وهم في باريس كثر، وبفراسة قلما تخطىء، فكان قادراً على ان يحزر، من خلال الملامح، من خلال اللهجة، من اين اتوا، ويبدأ من هناك، وبلمح البصر ينعقد حديث غالباً لا ينتهي مع نهاية المشوار! كان يعرف، او يقدر، ان هذا السائق جاء من البرتغال، وذاك جاء من اسبانيا. أما اذا صادف وركب مع سائق من شمال افريقيا، فلا بدّ ان تنعقد بينهما صداقة تتجاوز السيارة والرحلة.

ولان ملامح الباهي تشي به دونما خطأ، في الوقت الذي كان البعض يموّه ملامحه، بان يدعي، حين يُظن انه عربي، انه برتغالي او يوناني، وقد ينسب نفسه إلى أحد بلدان اميركا اللاتينية، كي لا يحمّل نفسه اي عبء، حتى لو كان الارشاد إلى موقع محطة القطار. . في الوقت الذي كان يفعل بعضهم هكذا، كان الباهي، وما ان يحس بحاجة الآخر إلى المساعدة حتى يتقدم بشهامة.

ذات مرة، في مطار اورلي، كان ينتظر صديقاً قادماً، وهناك التقى بحاج مغربي وصل قبل ساعات طويلة إلى المطار. حيّا الباهي الرجل المسن وسأله ان كان ينتظر احداً او بحاجة إلى مساعدة، فرد الحاج، والذي لا يعرف سوى العربية، انه جاء «لزيارة ابن له يخدم في فرانسا»، ولا يعرف كيف يصل اليه. سأله الباهي عن عنوانه، ما اذا كان لديه هاتف، فرد الحاج ان كل ما يعرفه ان ابنه «يخدم في فرانسا» ولا شيء اكثر من ذلك.

ظل الباهي معه ساعات طويلة، وانتقل من مكان إلى آخر وبعد ان سأل الكثيرين، اهتدى إلى بداية الطريق. ولم يطمئن إلا بعد أن ركب الحاج القطار المتجه إلى مرسيليا، ومعه عنوان ابنه، ومجموعة كبيرة من ارقام الهواتف لاصدقاء الباهي، ومعه ايضاً اكثر من عنوان للباهي، وكانت برقية قد سبقت انطلاق القطار تطلب من الابن ان يلتقي اباه في محطة القطار تمام السادسة مساءً.

وبدأ الباهي البحث عن الصديق الذي لم يستطع ان يلتقيه في مطار اورلي!

[27]

من الحالات القليلة، وربما النادرة، ان يلتقي الانسان شخصاً بهذا المقدار من الوفاء. واذا كانت عادة اغلب الناس ان يكتفي الواحد منهم بصديق او اثنين، وفي احسن الحالات بعدد محدود من الاصدقاء، فان الباهي كان قادراً على اكتساب اصدقاء جدد كل يوم! ورغم انه هجر العمل السياسي التنظيمي، او ابتعد عنه، ولم يعد طامحاً إلى كسب انصار جدد، او طامعاً بمقعد في انتخابات! الا ان آفة العمل السياسي ظلت تلاحقه، وظل من بقايا هذا العمل شيء يجذبه ويميز سلوكه.

من ذلك الحاجة إلى المزيد من الاصدقاء، لان ذلك يشعره بالحياة، بالدفء، وهذا لا يتوفّر الا بوجود الآخرين، ومعهم، مما كان يدفعه لان يبقى قريباً منهم، رغم انه تعود، في بعض الاحيان، الابتعاد عن الناس، خاصة الذين يعرفهم، واعتزال الحياة العامة، ربما لشعوره بالحزن، بضرورة مراجعة النفس، واحياناً لاتخاذ قرارات من نمط جديد.

كان يذهب إلى النورماندي او إلى جبال الالب، إلى معتزلات، اقرب إلى الاديرة، اهتدى اليها. وهناك يقضي الاسابيع، حتى يتعافى من التشاؤم ويعود إلى الناس، وغالباً ما يعود بنفسية مليئة بالاقبال على الحياة.

هل يمكن اعتبار علاقات الباهي بالآخرين علاقة معرفة ام صداقة؟

ان الاجابة على هذا السؤال سلباً او ايجاباً لاتعني شيئاً، فالاكثر اهمية ان نرى كيف يتصرف في الحالات الصعبة، اوقات الضيق، لان مثل هذا التصرف يعكس طبيعة العلاقة.

هذا اولاً، أما الشيء الثاني فهو ان نرى كيف يرد الآخرون.

كان الباهي يحب الناس، يحبهم مجاناً، اذا صح التعبير، دون ان ينتظر مقابلاً من اي نوع. صحيح ان الحب، بصورة عامة، لا يستقيم اذا كان من طرف واحد، كما لا يدوم اذا ظل هكذا، لكن الباهي، وبطريقة غريزية، واغلب الاحيان بشكل غير مباشر، كان يقدم الادلة على ان ذلك ممكن، بحيث يضطر الآخر، وربما بطريقة لا شعورية، للاعتراف، ثم التسليم.

ومع ذلك فان المسألة اكثر تعقيداً مما تبدو للوهلة الاولى. فالباهي الذي يتصف بمقدار كبير من الصفات الايجابية، قد لا يروق شكله او بعض تصرفاته لبعض الناس، فاللغة البسيطة، المباشرة، وبعض الاحيان الخشنة، والتي لا تخلو من الشتائم في حالات معينة، قد لا تروق لذوي الياقات البيضاء، الشديدي التهذيب، الذين يبحثون عن مرافقين مطيعين او مريدين لا يرون غيرهم... مثل هؤلاء لا يقع الباهي في اعينهم موقعاً حسناً، قد لا يستفزهم، لا يشتمهم، لكن يحسون ان لديه مقداراً من العدوانية، وهذه العدوانية ان كانت موجهة لغيرهم الآن، قد تتحول ضدهم في وقت لاحق، لذلك تبقى مسافة بين هؤلاء والباهي، وهو بدوره لا يفعل شيئاً من اجل اختصار هذه المسافة. لكن يوماً بعد آخر، يكتشفون، يعترفون، لانفسهم على الاقل، ان في هذا الانسان مزايا، لم يروها من قبل! ولذلك يحاولون الاقتراب منه، راضين ان يبقى بهذا الشكل، وهكذا تنشأ علاقة، لكن محدودة وخطرة، لان الباهي لا يغير شيئاً ولا يتغير!

لقد تكررت هذه الحالة اكثر من مرة، خاصة في السنوات الأخيرة، ومن ارباب العمل تحديداً، خاصة الذين لا يعرفون الباهي معرفة جيدة.

امر آخر، له وجهان، كان يقرّب ويباعد بين الباهي والآخرين. فحفلات «الزار» التي يتقنها العرب جيداً في الوطن والمهجر، والتي كانت تُعقد باستمرار، ما ان اجتمع اثنان او اكثر، كان الباهي يكرهها ويتعفف عن المشاركة فيها، وهذا ما كان يباعد بينه وبين كثيرين، مما يخلق جفوة او مسافة بينه وبينهم، لكن هذه الجفوة تتقلص، والمسافة تضيق ما ان يُعرف طبع هذا الرجل.

يضاف إلى ما تقدم ان الباهي كثيراً ما يأخذ جانب الدفاع عن الشخص الغائب او الضعيف، ان كان يستحق ذلك. ولان القصص تنتقل، فكثيراً ما تصل إلى اصحاب العلاقة. ورغم ان بعض هؤلاء لا يكنُّ وداً للباهي، الا انه يحمد له هذا الموقف، ثم يحاول التقرب والتعبير عن ود وحسن نية.

العداء بين الباهي، ومتحذلقي الثقافة راسخ ومستمر، على الاقل من قبلهم، لانه يعرف «آياتهم» وما يلفقون، بحكم اقامته الطويلة في فرنسا، ومعرفته ومتابعته لآخر التقليعات الثقافية، بحيث لا تجوز عليه تعابيرهم الفخمة. كما ان هؤلاء لا يشعرون بحرية كافية حين يكون موجوداً، لذلك كانوا يرمونه، سراً، بالعجز، ويقولون انه صحفي ولا علاقة له بالثقافة، مع ان اغلبهم يعمل اكثر منه في الصحافة واقل منه في الثقافة!

واذا كانت البيئات المغلقة، والمهن المتشابهة او المتقاربة تثيران حسداً وعداوة، ولا تعكسان حقيقة العلاقات، فان من صفات الباهي ان يثني على كفاءات «الزملاء»، وكان يتبرع في اتاحة فرص العمل لهم، وكان يصل باشاداته إلى درجة الحرج.

لكن الاهم من ذلك كله موقف الباهي تجاه الذين لا يعرفهم، او الذين يعرفهم والتقى بهم بشكل عارض، خاصة اثناء المرض.

واحدة من الحالات: زميل عراقي، صحفي، بالكاد يعرف الباهي، اصيب بداء عضال، ورغم المحاولات التي بذلت كي تتكفله صحيفته وتتولى علاجه، لم يُستطع الوصول إلى نتائج ايجابية. وبعد جهد

امكن قبوله في المستشفى، على ان تسدد تكاليف العلاج في وقت لاحق. وقد بقي هذا الزميل شهوراً متواصلة، ولم يكن يتردد عليه سوى عدد محدود، كان الباهي احدهم وابرزهم. لما تماثل الزميل للشفاء، كلف الباهي احد المحامين ليتولى الجانب المتعلّق بتسديد التكاليف، والتي قاربت النصف مليون فرنك فرنسي. وقد استطاع المحامي الوصول إلى النتائج المطلوبة، اعتماداً على ورقة امنها الباهي تشير إلى الصفة المهنيّة للمريض، ويتمنى الانسان لو ان هذا الزميل لا يزال حياً كي يقول كلمة حول الامر!

اذا كانت هذه صورة الباهي الخارجية، ويعرفها الكثيرون، فانه حين يكون في حلقة الاصدقاء الضيقة، حيث لا رقابة ولا قيود، يتحول إلى طفل: يدندن ببعض الالحان، مع التأكيد ان صوته لم يكن شجياً! يحلم بصوت عالٍ، ويريد من الآخرين ان يقتسموا احلامه معه. يقترح عشرات المشاريع والافكار من اجل اعادة تنظيم العالم! أما اذا كان مذاق النبيذ لذيذاً، واستمر في التأكد من ذلك، فانه عندئذ يبوح باسرار بعض الاحداث التي مضت، ويعقبها بعدد من الشتائم البذيئة يرافقها بعض الاشارات، ويختمها، احياناً، بدمعة يغالب كثيراً لئلا تنحدر، او ان لا يراها الذين حوله. فاذا ساد الصمت، وقبض الاصدقاء على الباهي ودمعته، وحاولوا مواساته ببضع كلمات، وقالوا: الخير بالآتي، كان يرد، ويخرج صوت كأنه ليس صوته:

ـ لقد اصبح مستقبلنا خلفنا، يجب ان نعترف بذلك، ويجب الا نخاف منه!

وحين يقترح عليه فواز طرابلسي ان يكتب ما عاشه وما شهده، ينفرج وجهه وتضيء عيناه، ويقول، وقد عاد إليه صوته القديم:

ـ انتظر.. وسترى

وبعد قليل:

ـ وسيأتيك بالاخبار من لم تزود!

[28]

. . . ومن الاشياء الجميلة التي غابت في السنين الاخيرة: كتابة الرسائل.

كانت الرسائل بين الاصدقاء عالماً شديد الغنى، بالغ الاهمية والجمال، فهي بوح واعتراف، وهي تفكير بصوت عالٍ، كما يقال. كما انها تسجيل للحظات الهاربة، بحيث تصبح ذاكرة اضافية للغد ولما بعده، خاصة حين يتقدم العمر او حين يهجم النسيان ثم الغياب.

كان يتم تبادل الرسائل بين الاصدقاء بكثير من الاهتمام والجدية، فهي بالاضافة إلى كونها فناً جميلاً، فانها إعمال للفكر لليالٍ كثيرة سابقة، ولعل من يكتبها يفكر باللحظة التي يعيشها ويفكر بالزمن الآتي، لانه حين يعطي نفسه هذا القدر من الحرية، فيكتب ما لا يقوى على قوله مباشرة، او بكل هذا الوضوح، فهو يفكر ان الرسالة قد تقع بيدٍ عدوة، او تسقط عليها عين فضولية، لذلك يدقق فيما يقول، ويُبعد عنها صغائر الامور، ويحرص على ما يريد قوله دون زيادة او نقصان.

وهكذا كانت الرسائل فناً جميلاً، وكانت مرآة يمكن من خلال النظر اليها رؤية الذين هرموا وغابوا، كما تعكس ازمنة بكل همومها وصعوباتها واخلاقها وحتى لغتها.

لكن، حتى هذه المتعة الصغيرة، الحنونة، فقدناها ضمن ما فقدنا في السنين الاخيرة الفائتة!

في الستينات، وقبل ذلك، حين كان الناس فقراء ـ وما زال اغلبهم هكذا إلى الآن ـ كان الابحار إلى كل موانىء العالم يتم عبر الرسائل. كانت الجمهوريات تبنى، والعروش تُثَلّ، ولم يكن هناك تردد في قول الاحلام ومعها بعض الجنون. ولان البريد كان اكثر تسامحاً وناسه اكثر رأفة، فلم تكن تلك الرسائل تتوقف طويلاً في المطارات او عند نقاط الحدود. ولأنها كانت سريعة هكذا، أمينة هكذا، كان يجري تداولها بكثرة ودون خوف، وبهذه الطريقة تجمعت، عبر الايام، رسائل كثيرة.

في تلك السنين لم يكن امام الكثيرين سوى: الكتابة او الصمت. ولان الباهي يكره الصمت، يخاف منه، اذ يذكّره بما هو اكبر منه وادهى، كان يكتب، وبعض الاحيان يسرف في الكتابة. وكان بهذه الطريقة يُحرِّض نفسه ويحرض الآخرين، وقد أثمر هذا التحريض عن اكتشاف اهم كاتب رسائل عربي، ربما خلال الثلاثين سنة الاخيرة: ستار الدوري، فقد وصلت احدى رسائله إلى مائة وثلاثين صفحة! وربما ما كانت لتكتب لولا تحريض الباهي.

في السنين الاخيرة فقدنا، ضمن ما فقدنا، كتابة الرسائل. اذ اصبحت صناديق البريد خالية، او فيها تلك القصاصات التي لا يقرأها احد، وكأنها تقول بشكل ميكانيكي: «الملجأ العشرون.. لا زلنا بخير ونخص الاقارب بالسلام»، حسب تعبير شاعرنا البياتي في اباريقه المهشمة.

ليس ذلك فقط، في الماضي كنا نتفاءل برؤية ساعي البريد مثل تفاؤلنا برؤية الهلال. الآن تحول البشر إلى مجرد ارقام، ولم نعد نرى الساعي او الهلال، وغابت معهما الحرية والاحلام، وغاب الانتظار أيضاً.

ليس الهاتف وحده السبب في غياب الرسائل، وان كان احد اهم

الاسباب. فالى جانبه الخوف، وإلى جانب الخوف انكسار الامل وغياب الحلم، وبالتالي الشعور بالخواء واللاجدوى.

حتى الباهي الذي كان المجال الحيوي لهاتفه: المنطقة الباريسية، ولا يتجاوزها الا قليلاً ونادراً، وسّع هذا المجال، كما توسع الدول القوية مجالها البحري، فشمل كل الاماكن، ولم يعد يعبأ حتى بفارق التوقيت!

لقد ادمن الباهي في السنين الاخيرة، فيما ادمن، الهاتف! كان قبل ان «يهدر» صوته، تدوّي ضحكته، وكأنها النشيد الوطني، اشعاراً انه على الطرف المقابل. ورأساً يمتلىء المكان بحضوره، من خلال الاسئلة البرقية، من خلال الاخبار السريعة، وقبل ان تجيب على اسئلته، قبل ان تسمع اخباره كلها، إما ان يسلمك إلى «جزار» آخر، او يردد كلمته المعهودة: لازم نبقى على اتصال!

يعرف انه عن طريق الهاتف لا يستطيع قول كل شيء، لان المتنصتين كثر، هنا وهناك، ويعرف ان اية كلمة لا يُحسن اختيارها قد ترتب نتائج لا يريدها لك، فهو بمأمن منهم، على الاقل الآن، ولذلك يصبح هاتفه، مثل رسائل اللاجئين عبر الاذاعة: لا زلنا بخير ونخص الاقارب بالسلام.

لقد تحول الهاتف شيئاً فشيئاً بعد ان رافقه الخوف، إلى عدو. حتى البرقيات التي كانت تصل ليلاً، وتُفضُّ باصابع مرتجفة، لما قد تحمل من اخبار يريد الانسان توقّيها، حتى البرقيات تبدو اكثر رحمة من الهاتف. فالبرقية، بعد ان يزول خوف اللحظة، وتنتهي المفاجأة، يبدأ الانسان في تفسير دوافع ارسالها، يقرأها مرة، اثنين، يقرأها آخرون، إلى ان ترسي على امر او حالة. أما هذا الهاتف الذي لا يقول كل شيء، فيبقى كالالغام الموقوتة، اذا لم ينفجر الآن فقد ينفجر في أي وقت آخر، حين يستدعى الانسان إلى احد الاقسام ليسأل عن

بعض الكلمات! مع ان الهاتف لم يقل ذلك أو بعضه، ولم يشفِ الغليل.

واذا كان للصوت الانساني نبرته، ويمكن ان يفهم من جرسه ما لا يقال، فانه في الهاتف شيء آخر. المسافات تكسره، تحوّله، تجعله شيئاً آخر مختلفاً. اكثر من ذلك، كان يبدو الصوت، احياناً، في الطرف الآخر، قوياً مزهواً، رغم انه كان يخرج من حنجرة مرة ومن صدر محزون، لكن المسافات موهته، كبرياء المتكلم في الطرف البعيد اعطاه صلابة ليست فيه!

الكلمات المكتوبة، خاصة في رسائل الاصدقاء، لا تموه نفسها، لا تخادع. قد تقول الاشياء بطريقة مواربة، غير مباشرة، لكنها تقولها في النهاية، وتقولها بوضوح في القراءة الثانية او الثالثة. وهذا ما يجعلها ضرورية في الكثير من الحالات، او كما يقول بسطاء الناس في المشرق: المكتوب نصف المشاهدة. ولعل كلمة الرسول جاءت من الرسالة!

وهناك امر متفرع تجدر الاشارة اليه: كل رسالة تصلك من صديق تستدعي منك جواباً، اذا لم يكن اليوم فغداً. انها، بمعنى ما، دين لا بدَّ من الوفاء به. قد يتأجل وفاء هذا الدين، وقد يمنحك الصديق وقتاً اضافياً، وربما كتب اليك مرة اخرى، لكنك تبقى مطالباً بسداد ما عليك، وبهذه الطريقة يستمر التواصل وتكتمل دورة العلاقة الانسانية.

أما هذا الهاتف اللعين، الذي جبَّ كل ما قبله من وسائل، فانه يخلِّف الظمأ بدل ان يروي العطاش. حين تستعمله، وهو يعبر كل هذي المسافات، لا تعرف ان كان من تريده موجوداً ام لا، ان كان مستعداً لمحاورتك ام لا، ان كان لديك او لديه ما يقال، خاصة في ظل «الاخ الاكبر» واقماره التي تجوب الفضاء!

آخر مرة سمعت الباهي، على الهاتف، قبل ان يعود إلى المغرب بفترة قصيرة.

بعد الاسئلة الروتينية، عن الصحة والكتابة والطقس، وبطريقة سريعة، ملهوجة، اشار، وبسرعة، انه «سيدخل» حسب التعبير المغربي، إلى البلاد.

بعد ان استوعبت ما قاله، سألته: متى؟ اجاب: قريباً، قلت بثقة: ستتفرغ للكتابة طبعاً، وهذا معناه ان تولد من جديد، وتبدأ الرحلة الكبرى!

اجاب بعد لحظة صمت:

ـ ليس الآن. ليس فوراً.

ـ ماذا ستفعل اذن؟

ـ اعمال ادارية في البداية، ثم سنرى!

ـ اكتب لي بالتفصيل يا باهي، ودَعْنا نفكر بهدوء قبل ان تتخذ أي قرار.

ولم يكتب الباهي من باريس. ودخل الباهي إلى المغرب ولم يكتب. ثم حمل اخيراً اسراره، معظمها، كلها، ومضى، دون ان يكتب!

لم يكتب اليّ وربما لم يكتب للآخرين أيضاً ما كان يحلم به، ما كان قادراً عليه ومتى سيفعل ذلك!

[29]

لا يمكن للشعر القديم ان ينهض من رقاده، وينفض عن ملامحه غبار الزمن الا حين يُنشد. ويصبح هذا الشعر اكثر عافية وقوة اذا تولى انشاده من يعرف اسراره، من يحس باللهب الداخلي الذي يسري في كلماته، وذاك الذي يعرف اللحظة التي تليق به، والطريقة التي تلائمه وتواتيه في الانشاد. عندئذ يصبح ذلك الشعر غير معرضٍ للشيخوخة، وقد لا يموت!

الباهي واحد من قلائل توصل إلى معرفة ماهية هذا الشعر، روحه. فهو بمقدار ما يحسن انشاده، لا يخطىء اختيار اللحظة او الطريقة، خاصة وانه يحفظ، عن ظهر قلب، كماً هائلاً من الشعر الجيد. ولفرط ما ردد واعاد يعرف كيف يخلق الجو والمهاد، ويعرف كيف يحتفل، وبجدارة، بهذا القادم الذي يمكن ان يقال عنه، دون تردد: هذا هو الشعر.

من يسمعه يتلو معلقة امرىء القيس يظن انه اخذها عنه مباشرة. ومن يسمعه يردد معلقة طرفة بن العبد يعتقد ان طرفة فارقه للتو واللحظة، ولا بدَّ ان يكون قد ذهب إلى الحانة المجاورة ليستريح قليلاً، قبل ان يواصل السفر وقول الشعر!

يأتي هذا الظن، او هذا الاعتقاد، لان الكلمات ابكار، والتراكيب

جديدة، طازجة، والصور مليئة بالحياة والحركة، وطريقة الباهي تضفي عليها تلك المهابة التي تستحقها، خاصة باسلوب ترنمه، اذ مع تلك التلاوة، وما يرافقها من شرح ضروري ومختصر، تتدفق رائحة الصحراء، ويصفر صوتِ الريح. فاذا ارتفع الصوت قليلاً او هبط، فانه يمتثل لخبب الناقة وقد واجهت طعساً فتحاول اجتيازه بلين، فيعبق عندئذ الجو برائحة الشيح والقيصوم والسدر، وتهب من بعيد ريًا المسك والعنبر.

أما وهو يتلو معلقة زهير بن ابي سلمى، فانه يستحضر في هذه الرحلة حكمة الحياة وعِبَر الايام، فتبدو الابيات، وهي تترجَّع، وكأنها دروس التاريخ كله، اذ يعرف كيف يضغط على مخارج الحروف، ومتى يتركها تنساب. يعرف متى يبدأ وإلى اين يجب ان يستمر. يفعل ذلك ليس كأي راوية لشعر زهير، وإنمّا كخالق لهذا الشعر، لان الحكمة تمتزج بعذاب الروح، بتعب الجسد، بلهفة العيون وبمذاق المرارة. كل ذلك كخلاصة لتجارب الزمان، ونزف القلب، بحيث يتأكد من يسمعه انه وزهير توأمان، وربما توصلا، معاً، لروح الاشياء.

فاذا بدأ يترنم بقصيدة نهج البردة، بتلك المسحة الصوفية، وقد تداخل فيها النغم البيزنطي بقصيد البادية، وترافق ذلك مع حركة الهوادج وهي تبحر في ذلك المدى اللامتناهي، فيتولد جرس هو مزيج من عناق الصحراء بذرى جبال الاطلس، ويتأكد هذا الجرس اكثر من خلال لهجة تقع عند تلاقي العربية بالحسانية، وعند ذاك يصبح ما يُنشد، ما يملأ الفضاء كله، ترتيل يهبط من الاعالي وينبع من اعماق النفس والارض ولحظة الوجد، وشيء مثل هذا لا يتكرر الا نادراً.

ان ما يقال الآن، ما يُسمع، اكبر من الكلمات واقوى منها، اذ يتحول إلى اصوات مفعمة باللوعة والصبابة والشجن، فيحار الانسان كيف اصبحت الكلمات بهذا العنفوان، بهذه الخصوبة الفياضة، وبهذا الجموح الذي يجتاز الزمن ويتجاوزه، لولا تلاوة الباهي!

الكلمة في مثل هذه الحالات مفتاح الكون، ومثلما هي نجمة القطب فانها طريق القلب، وهي أيضاً النبع ولحظة الدفء وبوابة الامل. الكلمة كائن حي، واقرب ما تكون لهيئة الغزال حديث الولادة: جديدة، تفوح بريًا البراءة وممتلئة حتى الاكتناز. كما تتسلل بصوت خفيض، غير مدع، اقرب إلى الهمس، وبمقدار ما تحكي الماضي فانها تشير إلى الآتي. تفعل ذلك باختصار، وبطريقة نعرفها ولا نعرفها، لكننا نحسها ولا نرى بديلاً ارقّ منها او اجمل.

الباهي والشعر شيء عجب.

صحيح انه لم يقل، بحدود ما اعرف، بيتاً واحداً من نظمه، لكن ما كان ينشده من اشعار الآخرين اصبح ملكه الخاص، تراثه الشخصي، وربما وحده الجدير به، لانه الادرى بروحه، والاكثر معرفة كيف يترنم به، خاصة بعد ان احتضنه في صدره ازماناً، ومنحه من الدفء والحنان ما جعله يكتسب عن جدارة صفة اساسية، وربما وحيدة: هذا هو الشعر!

حين سئل المتنبي، ذات مرة، عن بعض اشعاره ولم يتذكرها، قال كلمة اصبحت عنواناً فريداً. قال: «ابن جني ادرى بشعري مني» وابن جني، كما يعرف الجميع، احد ابرز شارحي وحافظي شعر ابي الطيب.

وقد لا يكون خطأً لو قيل ان الباهي ادرى من كثيرين، الكثيرين جداً، بالشعر الجاهلي، حفظاً ومعرفة بالمعاني ثم بالانشاد. وادرى من كثيرين، ربما الجميع هنا، بشعر الصعاليك. فحين يترنم بذلك الشعر يذوب، يسافر بعيداً، يهيم وجداً وعذاباً واخيراً يُغنّي او يقترب من الغناء.

لو ان مالك بن الريب سمع الباهي يردد اشعاره بتلك الطريقة، لو عرف مدى العشق الكاوي بين جوانح هذا البدوي وهو يهيم في ليل باريس مردداً:

خذاني فجراني ببردي اليكما   فقد كان قبل اليوم صعباً قيادياً.

. . . لو ان مالك بن الريب سمع او عرف او رأى ذلك، او بعضه، لا نتفض في قبره، لاصابته جنّة، وربما قرر العودة من جديد ليملأ ليس ليل باريس وحده، وانما ليملأ كل الليالي وكل الاماكن بجنون شعر لا ينتهي، وليقول لنفسه وللآخرين: لم اخطىء حين اخترت الشعر مذهباً، ولن اندم لاني كنت من الصعاليك!

لقد طلب من الباهي مرات عديدة ان يسجل بصوته ما يحفظه من الشعر الجاهلي، لكنه سمع واجّل. وحتى في ايام المصاعب والضائقة المادية والنفسية طُلب منه ان يفعل ذلك، لكنه لم يفعل. لماذا ابى، لماذا اجّل؟ سيبقى السؤال مفتوحاً. فالباهي لم يكن في عجلة من امره، وربما لم يقتنع بتوظيف مثل هذا النشيد لحلّ مشاكل الحياة المادية!

الآن، وقد انقضى كل شيء، يمكن ان نتوقف، مرة اخرى، عند الباهي وقصيدة مالك بن الريب. فهذه القصيدة بمقدار ما تهزه من الاعماق وتطربه، كانت تكمن فيها مأساته، تحديداً في المرحلة الاخيرة، وأيضاً في لحظات التعب وامتلائه بشعور الفقد والغياب، خاصة بعد غياب ابنته بتلك الطريقة المأساوية.

هل كان يرثي نفسه؟ يحرض ما تبقى فيه من امل؟ ان يتخذ من مالك درساً وعبرة؟ ليس المهم الاجابة على مثل هذه الاسئلة، الاكثر اهمية ان تلك القصيدة تعبر وتعكس ما كان يموج داخله، ما كان يرتطم في صدره، ما كان يعذبه ويملؤه بالشجن.

في بعض الليالي، حين يستبد به الحزن، حين ينسدُّ الافق وتضيق مساحة الرؤية، ويهبط شيء ثقيل على الصدر، لا يجد الباهي في مثل تلك الليالي سوى مالك بن الريب، وكأن هذا الملاك ـ الشيطان مولعٌ به، مطلوب منه ان يلازمه، ان يكون قريباً منه، ليس من اجل ان ينقذه

او يحميه، وانما لكي يذكره، وبعض الأحيان ليستفزه.

ومثلما تنقلب السلحفاة على ظهرها، ومثلما تدور الابرة على اسطوانة مشروخة، يبقى ابن الريب النديم الوحيد، وتبقى تلك القصيدة!

كان ابن الريب يمسك الباب، كما يقال، لا يدخل ولا يخرج. وكانت تلك القصيدة تدور الليل كله. لطالما اعيدت، وظلت تعاد، في الليالي الحزينة، حين يستبد بالباهي شعور يستعصي على الوصف ويهرب من التحديد، وكان لا ينتهي الا بالبكاء.

اذا بكى الباهي، وقليلاً كان يفعل، اذا سقطت الدموع دون ان يحاول منعها، واصابت ملوحتها الشفتين، عند ذاك يشعر بالراحة، باستعادة الروح، فيصرخ:

ـ . . . اخت هذا الزمان.

ويتطلع إلى الذين حوله بجفون سميكة، ولكنها لا تخلو من بداية فرح، يقول:

ـ سنغني الان!

ويحاول ان يغني، ويحاول مرة اخرى، لكن صوته الناشز يتقطع، يرتخي، فلا يقوى على المتابعة. وحين يتوقف، ويمتد بعض الصمت، يصرخ فجأة:

ـ هذه الليلة كلها لمالك بن الريب!

ويبدأ من جديد:

الا ليت شعري هل ابيتن ليلةً	بجنب الغضا ازجي القلاص النواجيا
فليت الغضا لم يقطع الركبُ عرضه	وليت الغضا ماشى الركاب لياليا
وليت الغضا يوم ارتحلنا تقاصرت	بطول الغضا حتى ارى من ورائيا
لقد كان في اهل الغضا لو دنا الغضا	مزارٌ ولكن الغضا ليس دانيا
اجبتُ الهوى لما دعاني بزفرة	تقنعتُ منها ـ أن الامَ ـ ردائيا

تذكرتُ من يبكي عليَّ فلم اجدْ سوى السيف والرمح الرديني باكيا
واشقر محبوكٍ يُجر عنانه إلى الماء لم يتركْ له الموتُ ساقيا
يقادُ ذليلاً بعدما مات ربه يباعُ ببخسٍ بعدما كان غالياً

***

صريع على ايدي الرجال بقفرة يُسوُّون لحدي حيث حُمّ قضائيا
ولما تراءت عند امرءٍ منيتي وخلّ بها جسمي وحانت وفاتيا
اقول لاصحابي ارفعوني فانه يَقُّر بعيني انْ سهيل بدا ليا
فيا صاحبي رحلي دنا الموتُ فانزلا برابيةٍ إني مقيمٌ لياليا
وخُطَّا بأطراف الاسنة مضجعي وردا على عيني فضل ردائيا
ولا تحسداني بارك الله فيكما من الارض ذات العرض ان توسعا ليا
خذاني فجراني بثوبي اليكما فقد كنت قبل اليوم صعباً قياديا
وقد كنتُ عطافاً اذا الخيلُ ادبرت سريعاً لدى الهيجا إلى منْ دعانيا
ولا تنسيا عهدي خليلي بعدما تقطعُ اوصالي وتبلى عظاميا
يقولون لا تبعدْ وهم يدفنونني واين مكانُ البعد إلا مكانيا

***

غداة غدٍ يا لهف نفسي على غدٍ إذا ادلجوا عني وأصبحت ثاويا
وأصبح مالي من طريفٍ وتالدٍ لغيري وكانَ المالُ بالأمس ماليا
فيا ليت شعري هل بكت ام مالك كما كنت لو عالوا نعيك باكيا
اذا مت فاعتادي القبور وسلّمي على الرمس اسقيت السحاب الغواديا
على جدثٍ قد جرت الريحُ فوقه تراباً كسحق المر نباني هابيا
فيا صاحبا اما عرضت فبلغن بني مازن والريب ان لا تلاقيا

غريبٌ بعيدُ الدار ثاوٍ بقفرةٍ يدَ الدهر معروفاً بأن لا تدانيا
اقلب طرفي حول رحلي فلا أرى به من عيون المؤنسات مُراعيا
وبالرمل منا نسوة لو شهدنني بكين وفدين الطبيب المداويا
وما كان عهدُ الرمل عندي واهله ذميماً ولا دعت بالرمل قاليا
فمنهن امي وابنتاي وخالتي وباكيةٌ اخرى تهيجُ البواكيا

[30]

الآن. . . توشك الرحلة على الانتهاء، لقد اقترب القطار من محطته الاخيرة!

ومثلما تبين المدن من بعيد، والقطار يتقدم نحوها، من خلال الاضواء والبيوت المبعثرة، ومن حركة ناس الضواحي، وأيضاً حين تخفت سرعة الحديد وتضجّ الدماء في سيقان البشر، عند ذاك يستبد بالانسان شعور ان شيئاً ما انقطع، او ربما انتهى، فاذا لم تستطع العين ان تلتقطه فلا بدّ ان يدركه القلب، فيتلفت بحثاً عن ذاك الذي انقضى، وعن هذا الذي سيأتي.

والباهي، ذلك البدوي الذي دخل باريس قبل عقود، يكاد يكون صورة اخرى من علي بن الجهم الذي دخل بغداد قبل قرون، فهذا الاخير ما كان لديه، وهو يصف ممدوحه، غير كلمات البادية، يقول وهو يعتبر ما يقوله ارق واصدق الكلمات:

ـ انت كالكلب في الوفاء وكالتَّيس في قراع الخطوب

لكن ما ان تمتد بابن الجهم الاقامة في بغداد، ذاك الزمان، ويتهذب وينصقل ثم يرق، حتى تتهذب لغته وصوره، ويقول ذلك البيت الذي اعتبره العرب اجمل ابيات الغزل:

عيون المها بين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث ادري ولا ادري

ذلك البدوي الموغل في القدم لا يختلف عن البدوي المعاصر: الباهي. فالاخير الذي جاء باريس متوجساً في البداية، ثم مكتشفاً بعد ذلك، لم يلبث ان وقع في عشق هذه المدينة وتعلم منها الكثير. ليس العشق المستبد وحده، وانما الذي لا يطيق بعداً او فراقاً، خاصة بعد ان ادمن المقاهي والميادين، بعد ان عرف الزوايا وصادق الوراقين، بعد ان اغتسل بامطار باريس مرات لا عدّ لها، واكتسب منها ومعها الفة المكان والعلاقة مع البشر.

لقد غرق البدوي الجديد في المكان. اصبح المكان الجديد حبل السرة، بعد ان تقطعت في حزيران وأيار، وكل الشهور الاخرى، الحبال، او اصبحت واهية او رخوة.

صحيح ان الباهي هيّأ نفسه، منذ وقت لا يدريه، لفراق باريس، لكنه كان عبقرياً في تأجيل اتخاذ القرار. كان لديه دائماً الحجة التي تقنعه قبل أن تقنع اي انسان آخر. وهكذا امتدت به الايام، وهكذا تتابعت حتى شباط 1996.

ولان الباهي لم يعد فتياً، ولم يعد مثلما كان قبل عقود، فقد قرر «الدخول»، قرر العودة.

حين اتخذ القرار كان ممزقاً، فالعودة امنيته التي لم تنطفىء، والتي لا يمكن ان تغني عنها اية امنية اخرى، لكن ان يعود للعمل من جديد، كما ابتدأ قبل عقود، فكان دافعه الواجب اكثر مما هو القناعة، كما اعتبره حلاً مؤقتاً، يصبح بعده قادراً على ان يفرد اوراقه ليبدأ رحلته الكبرى.

ومن تاريخ الدخول، إلى تاريخ محاولة العودة، مساحة مفتوحة تحتمل قراءات متعددة.

لكن اغرب ما في رحلة هذه الحياة ان عقله الباطن قرر، وربما بطريقة لا تخلو من مغزى، ان يتوقف عند السادسة والستين فلا يبلغ السابعة والستين، وان يكون اليوم الاخير في هذه الحياة اليوم الذي

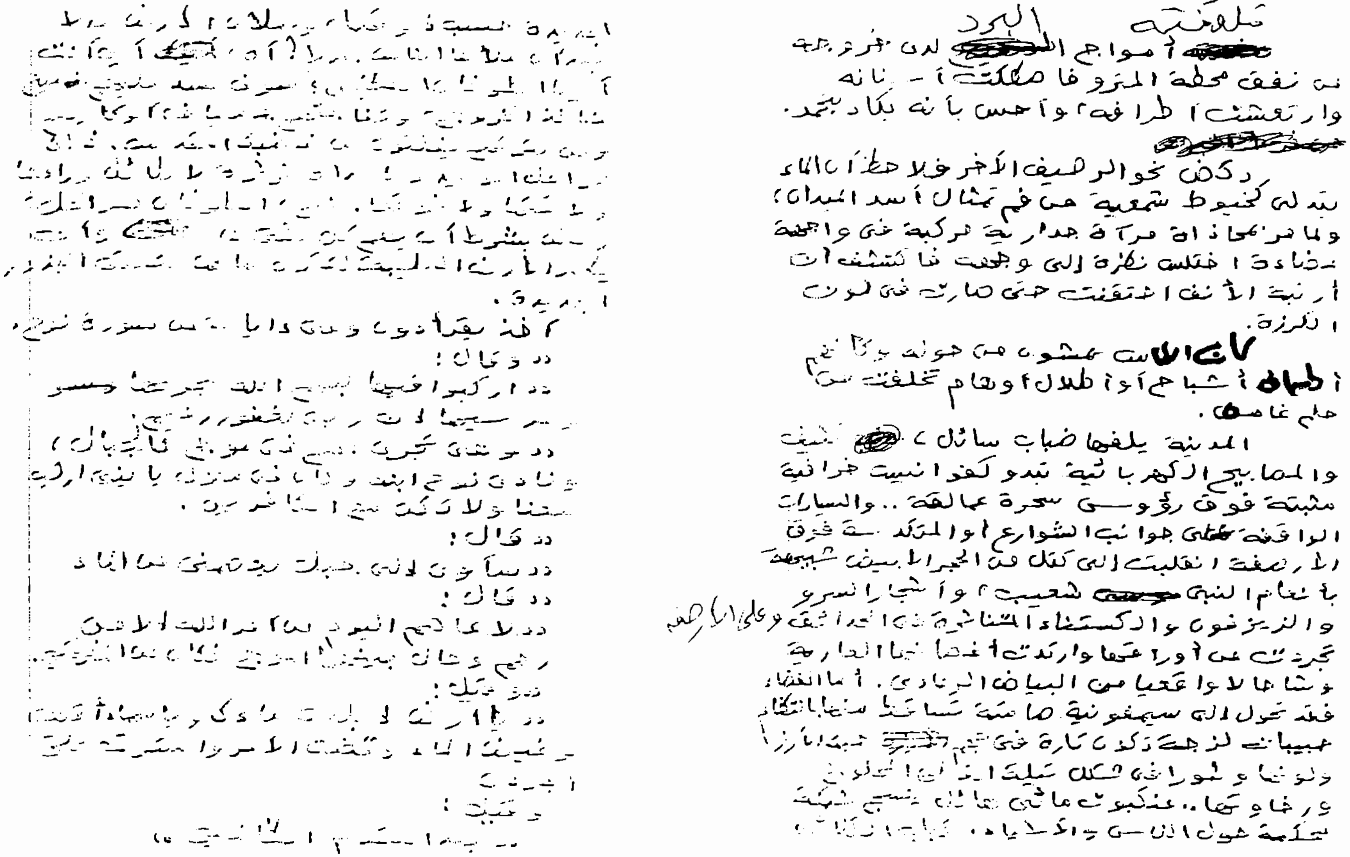
يسبق الخامس من حزيران. لم يكن يريد ان يشهد، مرة أخرى، ذكرى يوم الهزيمة، تاركاً املاً، ولو بعيداً، ان جيلاً غير جيله، لا بدَّ ان يفعل شيئاً كي يزيل هذا العار، وليقول أيضاً ان في هذه الحياة اشياء كثيرة، قوية، مضيئة، تستحق ان تعاش، غير الهزيمة.

وربما، وهو يغمض عينيه، ترددت، كدقات الطبول، ابيات مالك ابن الريب، ولا بُدَّ ان يكون قد ابتسم وهو يغالب الالم والحسرة، وربما تذكر، فتألم مرة اخرى، انه يترك العبء على الآخرين... ويمضي... يمضي إلى البعيد ويوغل في الغياب!

دمشق - بيروت

أواخر آب 1996

نموذج بخط يد «الباهي»



البرد
أمواج [illegible] لدى خروجه
من نفق محطة المترو [illegible]
وارتعشت أطرافه وأحس بأنه يكاد يتجمد.
ركض نحو الرصيف الآخر فلاحظ أن الماء
بدا له كخيوط شمعية من فم تمثال أسد الميدان؛
ولما مر بمحاذاة مرآة جدارية مركبة في واجهة
[illegible] التفت نظرة إلى وجهه فاكتشف أن
أرنبة الأنف احتقنت حتى صارت في لون
الكرزة.
كانت الحافلات محشوة من حوله بأناس هم
أشباح أو أطلال وهام تخلفت من
حلم غامض.
المدينة يلفها ضباب سائل [illegible] كثيف
والمصابيح الكهربائية تبدو كفوانيس خرافية
مثبتة فوق رؤوس [illegible] عمالقة.. والسيارات
الواقفة على جوانب الشوارع أو المتحركة [illegible]
الأرصفة انقلبت إلى كتل من الحجر الأبيض شبيهة
[illegible]
[illegible]

[illegible]

ملحق

فصل من رواية كتبها الباهي

تلقّفته أمواج البرد لدى خروجه من نفق محطة المترو فاصطكت اسنانه وارتعشت اطرافه، وأحس بأنه يكاد يتجمد.

ركض نحو الرصيف الآخر فلاحظ أن الماء يتدلى كخيوط شمعية من فم تمثال أسد الميدان، ولما مر بمحاذاة مرآة جدارية مركبة في واجهة مضاءة اختلس نظرة إلى وجهه فاكتشف أن أرنبة الأنف احتقنت حتى صارت في لون الكرزة.

كان الناس يمشون من حوله وكأنهم أطياف أشباح أو أطلال أوهام تخلفت من حلم غامض.

المدينة يلفها ضباب سائل، كثيف. والمصابيح الكهربائية تبدو كفوانيس خرافية مثبتة فوق رؤوس سحرة عمالقة.. والسيارات الواقفة على جوانب الشوارع أو المتكدسة فوق الأرصفة انقلبت إلى كتل من الحجر الأبيض شبيهة بأنعام النبي شعيب، وأشجار السرو والزيزفون والكستناء المتناثرة في الحدائق وعلى الأرصفة تجردت من أوراقها وارتدت أغصانها العارية وشاحاً لا واقعياً من البياض الرمادي. أمّا الفضاء فقد تحول إلى سيمفونية صامتة تساقط منها بانتظام حبيبات لزجة تكون تارة في حجم حبة الأرز ولونها وطوراً في شكل تيلة القطن المحلوج ورخاوتها.. عنكبوت مائي هائل ينسج شبكة محكمة حول

الناس والأشياء. قباب الكنائس وأسطح البنايات استحالت إلى مخلوقات دهرية، دناصير سريالية معممة يثير منظرها الرهبة والخشوع.

لا صوت، بل لا نأمة في الطرقات الخالية. ورغم قساوة البرد فقد أحس بغبطة عميقة لم يكدر صفوها سوى حنقه العميق على أفراد الشلة لتخلفهم عن الموعد. . وأخذ يتساءل: ما الذي جعلهم يتخلفون؟ وبدأ يجتر نظريته القديمة في الشلّة. إنهم لا يقيمون وزناً لأمرين: الزمن والانسان. وهم مثل كل العرب والشرقيين عموماً يعيشون في الأزلية بدلا من الزمنية. سوف يلتقي بهم غداً أو بعد غد أو بعد أسبوع فيبتسمون له ويعتذرون كالعادة، وتبدأ الحياة دورتها الطبيعية. أليست العجلة من الشيطان؟

عاصفة الثلج التي تهب منذ أيام غسلت المناخ من التلوث الصناعي الخانق.

الآن بإمكانه أن يتنفس ملء رئتيه هواء نقياً صافياً منعشاً.

تكدس الثلوج في الطرقات يمنع الدواب الآلية من التحرك. إنها تجثم عن يمينه وشماله كحيوانات أسطورية وديعة، مسالمة، أليفة وغامضة الهوية.

اليوم يحس أن المدينة ملكه وملك أمثاله من عابري السبيل. لا أضواء حمراء أو خضراء أو برتقالية ولا خطوط صفراء تحدد مكان المرور ولحظته. وابتسم نحو الداخل. أين شرطيو المرور الذين يوجهون السيارات والناس؟

إن هذا لا يحدث إلا نادراً. العارفون بتاريخ الأحوال الطقسية يقولون إن المدينة لم تشهد غضب الطبيعة على هذه الصورة منذ أجيال وأجيال. وكان قد سمع قبل نصف ساعة نشرة رصد الأنواء حيث تنبأ المذيع بأن الحالة لن تتغير قبل بضعة أيام. قالوا إن هناك جيباً بارداً سوف يمكث اسبوعاً فوق البلد قبل أن تعود الأمور إلى مجراها

الطبيعي. وقالوا إن هذا الجيب قادم من خليج ايرلندي وإنه يحمل كتلا هوائية باردة تتسبب الآن في سقوط عواصف مطرية وصقيعية بكثير من أقطار أوروبا الغربية. وقالوا إن هذا الجيب تسلل من القطب الشمالي المتجمد نتيجة ذوبان عدد من الجبال الثلجية القطبية. وهو يعرف النغمة: كل شيء يأتي من الخارج حتى تغير المناخ. لا يوجد بلد في الدنيا يعتبر القيمون على شؤونه أن ما يحدث فيه هو ثمرة لتفاعلات محلية. إنهم يبحثون دائماً عن أيدٍ أجنبية حتى وراء الظواهر الطبيعية. ولماذا لا تكون التغيرات المناخية ناجمة عن تقلبات مزاجية؟ مثلاً ليس هناك أي مانع من اعتبار أن مناخ بلدٍ ما هو ثمرة لانزعاج الطبيعة من أخلاق سكان هذا البلد. وأرجوكم أن لا تضحكوا من هذا الكلام. فالطبيعة كائن حي، رقيق جداً، وحساس جداً، وشاعر بكل ما في هذه الكلمات من معانٍ. وأنا واثق من أن هناك أشخاصاً وجماعات تنفر منهم الطبيعة وتدفعها حماقاتهم وسفاهاتهم وضلالاتهم وما يتَّسم به تصرفهم من غرور ونزق وطيش إلى السخط المدمر والمستمر.

بضعة أيام؟ أسبوع كامل؟ نصف شهر؟ سوف يشعر بسعادة عظمى ما دامت تلك الدواب الميكانيكية القذرة والحقيرة لا تنفث دخانها في الهواء.

راودته فكرة الذهاب إلى الحي الجامعي في شارع جوردان. ولكنه تضايق عند التفكير في المترو. إنه وسيلة النقل الوحيدة الآن. وعدل عن المشروع لأنه مأخوذ بعرس الطبيعة. هل يعرف سكان المدن اعراس الطبيعة؟ أراهن أنهم لا يعرفونها ودليلي على ذلك هو خلو الشوارع في هذه اللحظات الفائقة الروعة. لو كنتم تعرفون معنى الطبيعة وروعة الاحساس بالتفرج على أفعالها وهي تطلق العنان لنفسها لما كنتم قابعين الآن مثل الأرانب، في بيوتكم تتفرجون على برامج التلفزيون التافهة.

عرَّج على شارع المدارس فوجد نفسه وجهاً لوجه مع النصب

التذكاري للفيلسوف مونتانى الجالس القرفصاء وسط حديقة كلوني. لقد غطاه الثلج وحوّله إلى كرة بيضاء. أخذ يلامسه ويتذكر الدروس التي استمع إليها عن حكمته في معهد فرنسا القريب. أخرجه من حواره الصامت مع الحكيم زوج قطط كان يمرح قريباً من النصب فأخذ كمشة ثلج ورماه بها. قال في نفسه: إن زوج القطط هذا لا بُدَّ أن يكون ملكاً لأسرة بورجوازية وإلا لما استطاع أن يخرج في هذا المناخ الصقيعي القاسي. وحدها القطط البورجوازية تستهلك من الأسعار الحرارية كمية تجعلها قادرة على الاستمتاع برياضة التزحلق على الجليد في الحدائق العامة. العمال العرب والبرتغاليون والاسبانيون أي البروليتاريا الرثة لا يستطيع أفرادها الآن مواجهة هذه الموجة من البرد. القطط والكلاب تأكل أحسن من هؤلاء الكادحين الذين يقوم على أكتافهم مع ذلك قطاعات واسعة من اقتصاد أوروبا الرأسمالية المعاصرة. توجد فنادق من عدة درجات للكلاب، لا يحلم بها العمال. والكلاب والقطط تذهب دورياً إلى الأطباء البيطريين، وتحصل على بطاقات هوية. وتتزوج في مكاتب البلديات وتتسوق ربات البيوت أغذية هذه الحيوانات المدللة من حوانيت خاصة أخذت تتكاثر في السنوات الأخيرة حتى صارت بعدد دكاكين البقالين والقصابين. وتبلغ أعمال أرباب صناعات المعلبات الغذائية أرقاماً فلكية. ويشاهد نظارة التلفزيون يومياً إعلانات عن عدة أنواع من اللحوم المعلبة الخاصة بتغذية القطط والكلاب. وهي أجود وأغنى حراريّاً من الوجبات التي يتناولها أعضاء البروليتاريا الرثة خلال أيام العمل. ولذلك فالقطط والكلاب هنا تبدو جميلة نظيفة، تلهث دائماً لا من التعب كما يحدث عندنا وإنما من غزارة الشحم واللحم. وهي نظيفة لأنها تستحم في اليوم مرة واحدة على الأقل، وتمشط شعرها وتتعطر بعطور خاصة. وللكلاب مقبرة عريقة في مدينة أنيير بضاحية باريس الغربية يزورها أصحابها لوضع باقات الزهور على مقابر جميلة يحمل بعضها أنصاباً

من الصخور أو القرميد أو الرخام نقش عليها اسم الكلب وتاريخ وفاته.

تذكّر المثل القائل: في الليل تكون القطط كلها رمادية اللون، وفكر: إن ذلك غير صحيح. مجرد صورة مجازية. فهو يرى أمامه زوجاً من هذه الحيوانات بلون الليل البهيم الأليل. ربما كان ذلك راجعاً إلى التناقضات بين سوادهما الفاحم ونصاعة الثلج. ربما لأن الليل الذي يتحدث عنه المثل، هو ليل آخر، من فصلٍ آخر. واستقر عزمه على أن يطرح الفكرة للمناقشة في أول لقاء بينه وبين أفراد الشلة. سيقول لهم إنه عاين الأكذوبة الشيطانية التي تزعم أن القطط كلها رمادية في الليل. ضحك في أعماق نفسه من الأفكار التي تشاغله. وتساءل: لماذا أفكر بذلك كله؟

تصور ما قد يحدث لو أن الثلج كان من القوة الى درجة تنهدم معها كل محطات المترو على من فيها وتتحطم الخطوط الحديدية الهوائية والجوفية وتغور الطرقات ولا يبقى من طريقة للتنقل إلا الأقدام. تذكر أنه رأى فيلماً مستقبلياً صور المخرجون فيه ما تصوره هو على أنه علامات يوم القيامة: توقفت الساعات عن الدوران، وكفت السيارات عن السير، وشلت كل الآلات الأخرى الزاحفة والطائرة. وجد رغبة ملحة تحثه حثّاً للذهاب إلى نهر السين من أجل رؤية ارتفاع منسوب المياه. وقف على الجسر وأخذ ينصت إلى الخرير المخملي المنبعث من تحت، وينظر إلى بعض السفن والمعديات والزوارق الشراعية والآلية تعلو وتنخفض، ترتطم بالحيطان الضخمة التي تسور النهر، وتقترب من أشياء يبدو أنها مرافىء طافية لم يغمرها السيل بعد. كانت هذه السفن المختلفة تبدو كاسماك شبحية هائلة تصارع موجاً عاتياً يريد أن يلفظها على شاطىء متوحش. وعلى الضفة المقابلة بدت بنايات قصر العدالة وادارة الشرطة كبوارج حربية راسية في ميناء قطبي محروس. وعن يمينه كانت أبراج كنيسة نوتردام تجعلها أشبه شيء

بسفينة ركاب شراعية عتيقة وهائلة تمخر بحر الظلمات وسط اعصار هائج. وقال في نفسه: إذا استمرت الحال على هذا المنوال فمحال أن لا يحدث الطوفان غداً. وتساءل بفرح ممزوج بالخوف: وهل أشاهد الطوفان؟ سوف يكون مشهداً مثيراً بلا شك. آه، ما أجمل الطوفان، ما أروعه، ما ألذه. فليأتِ إذاً، الليلة أو غداً، لينظف كل شيء، ولتبدأ الحياة من جديد. وحين تطلع الشمس في اليوم التالي للطوفان، حتى ولو أنه أتى على الأخضر واليابس، وجعل الأرض قاعاً صفصفاً، فلا بد أن تشرق على رجل وامرأة تكون لديهما الرغبة في المضاجعة والانجاب والعمل. سوف يصبح كل شيء ممكناً. وتحذف كلمة المستحيل من القاموس.

مشى خطوات متحدرا في اتجاه منطقة المرافىء. وهبط بعض سلم السور الجداري القائم على النهر حتى استطاع أن يداعب الماء البارد بأصابعه من فوق حائط الرصيف. واقترب من مركب صغير كان التيار يتلاعب به وفكر: لم لا أركبه وأبحر بعيداً، بعيداً لأ تفرج على العالم وهو يغرق: وضحك من سذاجته وقال: إن الهروب مستحيل، والأحسن أن أكون في قلب العاصفة حين تهب لتدحر كل شيء. الا يقولون إن الموت في العِشْرَةِ هو ضرب من النزهة؟ بشرط أن تكون عشرة طيبة. ومن قال إنني لن أكون ثاني اثنين يبقيان على قيد الحياة بعد الطوفان، ويقومون بتعمير الدنيا الجديدة حسب ذوقهما، ويملآن الأرض عدلاً بعد أن ملأها الناس جوراً؟ آه، أين أنت أيها الطوفان العظيم؟ سوف تسد عليهم جميع منافذ الخروج، وتفاجئهم جميعاً في أوكارهم ولن تتركهم يفلتون من غضبك المقدس. ذلك هو الحل الوحيد وما عداه ثرثرة لا طائل وراءها ولا تحتها ولا فوقها. نعم، الطوفان هو الحل، ولكن بشرط أن يعم كل شيء، وأن يطهِّر الأرض الطيبة لتكون صالحة لتلقِّي البذور الجديدة.

أخذ يقرأ دون وعيٍ آيات من سورة هود:

﴿وقال: اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرسيها إن ربي لغفور رحيم﴾.

﴿وهي تجري بهم في موج كالجبال، ونادى نوح ابنه وكان في معزل، يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين﴾.

﴿قال: سآوي إلى جبل يعصمني من الماء، قال: لا عاصم اليوم من أمر الله إلاّ من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين﴾.

﴿وقيل: يا أرض إبلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودى، وقيل: بعداً للقوم الظالمين﴾.

ومن يكون نوح العصر؟ ألقى السؤال على نفسه ونظر نظرة إلى السماء فلطمته بحفنة من دموعها القطنية وقال: «ان الطبيعة تشكو مرض الاسهال، وتشخ على الأرض لتنتقم من الناس. ومن زعم أننا بحاجة إلى نوح؟ الجميع ينتظرونه، ولكنهم يتصورونه من دون طوفان. انتظروا الطوفان أولاً، ليأتيكم نوح الحقيقي. صدقوني، فالحق أقول لكم: إن نوح العصر قادم على جناح السرعة. وإياكم والأنواح المزيفين فإنهم كثيرون في هذه الأيام. وإياكم والطوافين المزيفة أيضاً. الطوفان الحقيقي لم يأت بعد. أنا أعرف الطوفان، وأعرف أكثر من ذلك أنه يمكن أن ينبلج بغتة من ضمير الغيب، مثلما ينبجس الصبح من أحشاء الظلام. ولا تتصوروا أنني شاعر أو مشعوذ أو ساحر أو شيخ طريقة جديدة. ولكن حذار، فالطوفان الذي أتحدث عنه ليس ذلك الذي قد يتصوره الأذكياء منكم. ينبغي عليكم بالخصوص أن لا تفكروا في قصة الطوفان كما رواها القرآن. إن الطوفان المنتظر من نوع آخر، جديد تماماً. ونوح الآتي سوف يبول عليكم جميعاً ان لم تكونوا من الذين آمنوا بالطوفان، حسب المفهوم المدون في قدس الاقداس. ومهلاً، حافظوا على لعابكم في أشداق مغلقة بإحكام، ولا تتركوه يسيل عبثاً، متصورين أن نوحاً العصري

سوف يكشف لكم لعبته، ويريحكم من مشقة التفكير والتدبير. عليكم أولاً أن تقدحوا زناد تفكيركم إلى أن يأتي الله بالفتح أو أمر من عنده. ومرة أخرى لا تتصوروا أن نوحاً يدعوكم إلى الاستمرار في المسلكية الاتكالية البليدة الحالية، أو يطالبكم باسقاط كل أحلامكم وأوهامكم وهواجسكم ومطامعكم عليه. اذا فهمتم الأيديولوجية النوحية بهذا الشكل انطبق عليكم الكلام القرآني:

﴿مثل الذين حُمّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً﴾.

مؤلفاته

روايات

الأشجار واغتيال مرزوق، دار العودة، بيروت 1973.

قصّة حبّ مجوسيّة، دار العودة، بيروت 1974.

شرق المتوسّط، دار الطليعة، بيروت 1975.

حين تركنا الجسر، دار العودة، بيروت 1976.

النهايات، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1977.

سباق المسافات الطويلة، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1979.

عالم بلا خرائط، رواية مشتركة: عبد الرحمن منيف وجبرا إبراهيم جبرا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1982.

خماسية مدن الملح، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1984 ـ 1989.

الآن. . . هنا، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر والمركز الثقافي العربي، بيروت 1991.

سيرة مدينة، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1994، وقد صدرت في طبعة خاصة عن المركز الثقافي العربي، وتضمنت رسوماً وتخطيطات لعبد الرحمن منيف، تدور حول «سيرة مدينة».

ثلاثية أرض السواد، المركز الثقافي العربي والمؤسّسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1999.

أم النذور، المركز الثقافي العربي والمؤسّسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 2005.

أسماء مستعارة (قصص قصيرة)، المركز الثقافي العربي والمؤسّسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 2006.
الباب المفتوح (قصص قصيرة)، المركز الثقافي العربي والمؤسّسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 2006.

دراسات أدبية وسياسية

الكاتب والمنفى، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1991.
الديمقراطية أولاً، الديمقراطية دائماً، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1995.
بين الثقافة والسياسة، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر والمركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء 1999.
رحلة ضوء، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر والمركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء 2001.
ذاكرة للمستقبل، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر والمركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء 2001،
لوعة الغياب، النشر والمركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء 2001،
عروة الزمان الباهي، بيسان للنشر والمركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء 1997.
العراق: هوامش من التاريخ والمقاومة، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر والمركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء 2003،
مبدأ المشاركة، وتأميم البترول العربي، ، دار العودة، بيروت 1973.
تأميم البترول العربي، بغداد 1976.

دراسات فنية

مروان قصّاب باشي: رحلة الفنّ والحياة، نشر خاص، دمشق 1996.
جبر علوان: موسيقا الألوان، دار المدى، دمشق 2000.

عُروة الزمان الباهي

بغياب الباهي فقدنا الكثير، والآن تتبدى هذه الخسارة أكثر من قبل.

ولأننا عوّدنا أنفسنا، وتعوّدنا أيضاً، أن لا نقدّر الناس حق قدرهم إلا بعد أن يغيبوا، فلعل الباهي أكثر الناس تجسيداً لهذه السخرية السوداء. فهذا الرجل الذي أعطى الكثير في حياته، وكان الإيثار أحد الصفات المميزة له، وهذا الذي لم يقتسم مع الآخرين المغانم، رغم أنه كان حاضراً، لا يريد اليوم أكثر من الإعتراف والعرفان.

وإذا كنا، نحن الأحياء، قادرين على أن نكفّر عن جزءٍ من خطايانا، وأن نجسّد سلوكاً جديداً في حياتنا فيجب أن نفعل ذلك في الوقت المناسب وبالطريقة اللائقة.

وإذا فاتنا أن نفعل ذلك تجاه واحد من أنبل أبناء هذه الأمة، الباهي محمد، في حياته، وفي محاولة لتدارك هذه الخطيئة التي غالباً ما تكرر، فلابد أن نفعل ذلك سريعاً: كأن ننشىء جائزة للصحافة باسم الباهي محمد، وأن نجمع ما كتبه ليكون هذا التراث درساً في الفكر والصحافة والأدب للأجيال، وكي تستقر روح الباهي بعد أن تعبت في ليل المنافي الطويل.

ومثلما كان الباهي إنساناً كبيراً في حياته، فسوف يشمخ ويكبر أكثر حين نكتشفه من جديد.

عبد الرحمن منيف

978-9953-68-246-1

المؤسّسة العربية للدراسات والنشر
المركز الثقافي العربي